رواية

محمد الأشعري



جنوب الروح

المركز الثقافي العربي

محمد الأشعري

جنوب الروح

رواية





المركز الثقافي العربي

محمد الأشعري

جنـوب الـروح

الكتاب

جنوب الروح

تأليف

محمد الأشعري

الطبعة

الثانية، 2012

الأولى ، 1996

عدد الصفحات : 192

القياس: 14 × 21

الترقيم الدولي:

ISBN 978-9953-68-529-0

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ـ المغرب

ص.ب : 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف : 0522 303339 ـ 0522 307651

فاكس : 305726 522 212+

Email: markaz@wanadoo.net.ma

بيروت ـ لبنان

ص.ب : 5158 ـ 113 الحمراء

شارع جاندارك ـ بناية المقدسي

هاتف : 01 750507 ـ 01 352826

فاكس : 343701 1 961+

Email: cca_casa_bey@yahoo.com

"المخلوق جائز، الزمان محدث،
والمكان محدث!
الزمان مفتقر، والمكان مفتقر"

من أوراد الشيخ الكامل
المأخوذة من ورد الشيخ محمد بن سليم الجزولي:
"سبحان الدائم لا يزول"

I

في تلك الساعة من صباح اليوم الأول من رمضان، لم تكن الشمس الزاحفة ببطء قد وصلت بعد إلى الجسم النحيل المُتكوّم أسفل العتبة، في ذلك الفناء الطيني الناعم، حيثما يزال الكلب الذي سهر الليل كله فوق السطح يبحث عن مكان لأخذ قسط من الراحة، تعاكسه الدجاجات المضطربة، والمعزة التي تأخرت العجوز في إخراجها، فراحت تدور حول نفسها بعصبية.

كان الفرسيوي متكئا إلى عتبة غرفته يراقب هذا المشهد العصبي ليوم صقيل من شهر أبريل، ووصلَه في تلك اللحظة عبير حاد، هو مزيج من شذى نباتي وإفراز حيواني، فمد قدمه اليمنى الثقيلة لتلك البُقعة التي وصلتها الشمس حتى سرت في جسده قشعريرة الدفء الذي مس بنانه فقط، وقال في نفسه: هذا هو عبير الربيع، فصل اللقاح والاضطراب والشهوة. وابتسم وهو يفكر في الشبان الذين ستلفحهم الشمس بعد قليل، وهم ينقلون أحزمة العشب الفواحة أو ينكفئون على

الأرض الرطبة ينقشون فيها حول نبتة الفول أو البطاطا، مساحات ظليلة، كأنهم يقومون بكشف نعومة جسدها. واتسعت ابتسامته حتى ارتسمت ضحكتهُ الدرداء الأليفة، لأن هذا اليوم المشمس هو أيضا أول يوم في رمضان، ولن يستطيع الشبان أن يستسلموا لالتذاذاتهم الدفينة، وهم يحزون العشب فتنبعث من حركة المنجل رائحة فرجية لاسعة، أو يقودون الأفراس والأبقار، فتلفحهم همهماتها، وارتعاشاتها العصبية. استسلم الفرسيوي لتذكره اللذيذ، فما لبث أن رأى نفسه في نفس الهضبة القشيبة في تلك القرية التي نزل إليها في بدَاية القرن مهاجرون طائشون من قبائل تشظت بالمجاعات والحروب. العشب في تلك الأيام عال يحجب رجلا فوق حصانه، وهو يطعن بمنجله تلك الخضرة الثخينة، ويكوم اللفات السمينة لأعشاب بَلَّعمان، وبوحمو، ولحية العتروس، والبَقولة، والعسلوج، وقدم العبد، والحميضة. يغوص بسمعه في حركة النصل المعقوف التي تُصْدِرُ وَحْوَحَةً صاخبة تليها أنة بحاء تسبق هبوب تلك الرائحة، العشب يزحف أمام جسده، يتوثب، يتلوى، يتمنع ويستسلم، وهو يتبعه بعرقه، ولهاثه، وجسده المغمور بالشمس والحركة، حتى تلك اللحظة التي انكفأ فيها على الأكوام الساخنة مضموم الساقين وقد امتزجت نطفته بسوائل الأعشاب المقطوعة.

عبرت هموشة العجوز فناء البيت ممسكة مكنستها اليابسة، وألقت تحيتها في عجلة، ثم انتبهت لضحكة الفرسيوي التي تشبه ضحكة الرضيع. قالت مازحة وحنونة:

- يضحك لك الخير!

فلم تسمعه يرد. حلت حبل المعزة، وهرعت للباب ففتحتها محدثة نفس الصرير الذي تحدثه منذ أزيد من تسعين سنة، وكان الصرير ما يزال مستمرا عندما بدأت تشطب مرقد المعزة وما حوله في حركات واسعة صاخبة متحدثة للفرسيوي بصوت عال جدا، ليسمعها رغم صخب الكنس، ولتستطيع هي أيضا أن تسمع نفسها:

"يضحك لك الخير أسيدي، هذا النهار المبروك، الله يجعلها ضحكة الخير والسلامة، شِي حلامة هذي خير وسلام، والا عودتي لراسك شي حجاية، ولاً هي الشمس وصلتك وضحكتي لها، من لفجر ما تحركتي، هديك هي جلستك، ما قالك عقلك تطلق المعزة، ما قالك تخرج تَسَرَّح رجليك، غير تسرحتي وتكورتي تَمَّ بحَالْ القنفود، بلحق غير ضحك مع راسك، هذا سيدنا رمضان، وها العيد جاي، وتعمر عليك الدار بسيدي محمد، وتفرغ عليه المحاجيات ديالك، أنا اللي ما عندي لا والي ولا تالي. أحِّي يَانَا .. عام هذا، واش قال نفكر أمي هموشة، ونطل عليها، ما عرفتها عاشت ولا ماتت، بلحق، راهم ولدوهم من كرشهم وما دارو لَهُم رْبَحْ، وعساك أنا اللي غير ربيت، ألفرسيوي، على رقبتي كون يخيروك تموت كتشهد أولا كَتْحَجي، حتى تقول كانحاجي هيء .. هيء.. هيء.. كانت امك الله يرحمها كتعودها وتضحك، ملي ابدتي تهضر، وانت كاتحاجي ما علمك حد، هي شفتي اميمتك واحد نهار كتخبز وتبكي، كتخبز وتبكي، كان المرحوم

عول يتزوج عليها، كنت كتغمس الزيت حدا الفران، مسحت يديك في راسك، وبديتي تحاجيلها، على المرا اللي قطعت سالفها وعملتو لجام للعود، وركبت وعيطت، جبد، العود رجع نسر، والسالف حنش، والمرأة غمامة، أحي يانا أش خرج ليك من داك الراس!".

"وامك مسكينة، هيء.. هيء.. هيء.. أوليدي الله يهديك ما تحاجيش بالنهار، يخرجو أولادك قورع، وانت بحال اللي مخطوف الله يحفظ، غير كاتبدا كان يا ما كان كتغاشى، وكيولي لسانك كيجمد الطيور في السما. ايوا انت بعد دوزتيها، وخا خرجت فيك الدعوة وولَتْدي سيدي محمد قرع، ولكن بعد، عشت حتى ولدتيه وكبر، الله يرحم مو مسكينة، سبع يام ليل ونهار، وهي كتولدو، النهار لَّخَر، من لفجر وراس سيدي محمد كيبان منو شي شوية، أش من راس، طَرْف أحمر وصافي، امي حليمة قالت التاليد سْبَقْ بالقاع.. والو لا قاع لا رجلين، غير راس سيدي محمد ما فيهش زغبة واحدة، ملي خرج من الظهر تبارك الله والصلاة على النبي، تقول كرعة حمرا.. ما تسل مسكين حتى سل روح اميمتو. كانت كتقولها مسكينة وهي حبلى، كتقول واش الكرش اللي دخلها الما ديال ميات عام ما زال تعيش مولاتها.. ايوا اللي مكتاب لو شي حاجة يدوزها، ها أنت، الزيتون اللي غرستيه مات وانت ما زال بالعمر!..."

رفعت هموشة قامتها النحيلة بصعوبة، ووقفت وسط غبار "تشطيبتها"

ألقت بالمكنسة عند قدميها، وبدأت تعيد ربط المنديل المزركش على رأسها.

"الله أربي، وفاين أنا اللي انهار اللي رحت عندك كنت ما زال عمري ما عَمْت، وأنت شعرك بحال الليقة دا لصوف ها أنا وليت الى تحنيت ما نتكعد حتى يغفر لي الله، وانت بحال المسقط!"

لمحت ضحكة الفرسيوي، فقالت مازحة وحنونة في آن: وضحك عليا، حتى أنا وليت نحاجي بالنهار الكَهار!

في هذه الساعة من صباح ذلك اليوم الأول من رمضان، كانت الشمس قد وصلت إلى ركبتي الفرسيوي، وكانت هموشة تتأهب للخروج خلف معزتها، وكان العبير القوي لشهر أبريل يغمر الأمكنة والحواس.

تهيأ للعجوز أنها سمعت حركة خلف السور، فخرجت غاضبة لتؤنب الأطفال الذين ما زالوا في خيالها يمرون في هذا الوقت متجهين للمسيد حتى بعد أن انقطعت أخبارهم منذ سنوات، ولم يعودوا أسرابا، تجذبهم الأحاجي التي يحكيها الفرسيوي بصوت عال لتسمعه زوجته، أو تستهويهم ثرثرة هموشة التي تتكلم بصوت عال لتسمع نفسها، فيقفون ملتصقين بالسور لا تصدر عنهم نأمة واحدة، حتى ينهي الفرسيوي أحجيته، أو تنتهي العجوز من ثرثرتها التي تتضمن من حين لآخر إشارات جنسية، أو كلاما بذيئا يدهشهم، وعند ذلك يتقافزون ويتجاذبون ليستأنفوا طريقهم.

خُيل للعجوز أنها سمعت تلك الضجة المألوفة فخرجت

غاضبة، وجرت بضع خطوات في الممر الترابي الموحش ملقية شتائمها خلف غبار الأطفال وضحكاتهم.

وعندما استعادت هدوءها ظلت تروح وتجيء بين باب البيت وسياج الصبار متحدثة بصوت حاد عن قلة التربية والحياء، وعن هذا الجيل الذي ولد في كم إبليس، ثم عادت أخيرا لتأخذ الحنديرة والقلة الفارغة، عند ذلك رأت ابتسامة الفرسيوي ما تزال كما رأتها أول مرة، ورأت الشمس تغمر جسده حتى الصدر تقريبا، فاقتربت من الجسد النحيل متوجسة، وحدقت في وجهه طويلا، حتى أفزعتها تلك الضحكة الجامدة. وعندما دفعته بقوة مستنكرة، مال الجسد النحيل وسقط مثل خشبة يابسة.

انكفأت هموشة على جسد الفرسيوي، وراحت تئن أنينا خافتا متقطعا، لا يشبه بكاء ولا نحيبا، ثم راحت تدور بالجثة المتيبسة تمرر أصابعها على الجفنين المفتوحين، وتمسك بيدها وجهه في محاولة لإغلاق بسمته المفزعة. تنزل لقدميه ثم تصعد لرأسه كأنها ترقص حول جثته، وعندما اهتدت أخيرا لتمديده على ظهره وإسبال ذراعيه الطويلين، كان أنينها قد ارتفع حتى صار عويلا. ثم توقفت فجأة، وقد لاحظت بقعة واسعة بليلة على جلابته أسفل بطنه، مدت أصابعها للبلل للزج فأجفلت متراجعة وقد وصلتها رائحة نطفة نفاذة. رائحة لم تشمها منذ أكثر من أربعين سنة.

مساء ذلك اليوم، كانت قرية بومندرة قد دفنت أول من وطئها قادما من الريف، وكان حفظة القرآن بها، متجمعين في بيت الهالك. وبعد صلاة المغرب، واحتساء الحريرة مع

الكرموس، وأكل الكسكس بالدجاج والبصل والزبيب، وبعد قراءة سورتي يس والواقعة رشف إمام المسجد رشفة حادة من كأس الشاي الساخن، وخاطب الشيخ المهدي، وهو ابن أخ الفرسيوي، كان هذا الأخير قد جاء به وبإخوته في "عيون الشواري" مع الكرموس اليابس والزبيب، وهرب بهم من الريف في مجاعة 1880.

. إو دابا شحال عاش الفرسيوي ألْمهدي لله

عدل المهدي جلسته وقال:

. ملِّي جينا من الريف، كان هو عندو ثلاثة وثلاثين عام أسيدي، وأنا لكبير في اخوتي عندي سبعة، وفي رفود محمد الخامس كنا عند الفقيه سي عبدالله، فسقساه الفقيه، قالوا: ألفرسيوي شحال دابا باش جيتي من الريف لله قالوا الفرسيوي الله يرحمو، هدي اسيدي ثلاثة وسبعين عام، فشوف أسيدي من ديك الوقت لدابا شحال وطلّع الحساب.

رشف الفقيه من كأس الشاي مُصَوِّتاً في كل رشفة فترة طويلة. وعندما وضع الكأس فارغة على الصينية، عاد فلف السلهام الأسود على جسده وأعلن بلهجة رسمية:

. إيوا أسيادنا، المرحوم توفى كانت عندو مية وربعة وربعين عام. وهاد الدوار فاش احنا العمر ديالو مية واربعطاش سنة.

تداخلت الهمهمات والتعليقات حتى ارتفع منها الصوت الحاد لسلاَّم الفرسيوي أحد أبناء أخيه.

. أحنا اللولين اللي حطينا هنا أسيدي، ملي وصلنا للغابة اللي مجاورة الحافة دبني مرعاز طاح الحمار حاشاكم بالعيا. هبطنا من تم حتى رْكَبنَا على الظهر اللي فيه دابا الارض ديال ولاد السِّي حمو، كان رمضان فيامات الله، ليلة دستة وعشرين، جا المرابط وحمو عكي، ومحند سلام، بعيالاتهم وبولادهم، نهار فاش وصلوا ماتت لمحند واحد البنت، كانت هي تْرَابي، قطعت امها عليها لحليب، باش ترضع الولد الكبير كان مريض، علال الله يرحمو، وهاديك هي الروح الاولى اللي دفنا هنا، في العيد الصغير جات يامنة وبناتها فطوش ورقية، وفاطمة، إوَ أسِيدي، عاد جاوا أولاد السي بادي، وايزيدن وبني عكي، الله يرحمكم و...

وهنا علا صوت الفقيه: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم!

فعدل الحاضرون جلستهم، وهم متأكدون أنه سيفتح سورة القيامة.

II

دفن الفرسيوي في المقبرة التي تضم رفاة الطفلة التي ماتت منذ مائة وأربعة عشر عاما. كان قبر الطفلة في أقصى المقبرة، تحت شجرة الخروب، وكان قَبر الفرسيوي جنب الطريق، محاذيا لحاجز الصبار المحيط بالمقبرة. وبين القبرين اصطفت عشرات القبور المتداخلة، وقد امحت الحدود بينها ولم يعد يدل عليها سوى الشواهد المبعثرة.

كان سَلاَّم يعرف القبور كلها، لذلك فقد تحلق الناس حوله بعد دفن الفرسيوي وشخصوا بأبصارهم إلى تلك المساحة المزدحمة بينما راح يشير بأصبعه المعقوف شارحا.

"هذاك القبر الهيه ديال الفقيه السِّي محند أو علال، حداه السِّي أحمد خاه، وفوق منو لهاد الجيه، خوهم السِّي ادريس. أودي يا السِّي ادريس مسكين، اتهرس سبعطاش لتهريسة حتى ولى كيجبر راسو بيديه، وكيدير الكبريت على الجبيرة ويشعلو ويجلس يشوف فيه، بحال الى شعلو في شي جدرة. الهيه ولاد

بنسلام كاملين ماتو في التيفوس. منهم إلَى هنا، ولاد السِّي امحمد الورياغلي، عام التيفوس اخرجنا من دارهم اثناشر كنازة. فيهم السِّي محمد ولد الفقيه، والعربي وحمادي، ولخواتات بربعة، بلا الدراري. من الخروبة لتحت، هادوك اخوتي الله يواليهم برحمة الله، وراه القبر دا لفقيه السِّي حمو، حده ولد شعيب، ومحند نَسِّي عمار، ومن الهيه السِّي بن علال لْكْبير، حداه فاطمة ختو الله يرحمها، أش كانت كتدير للبارود، اشحال قتلت في الريف، انهار فاش سكنو لهيه فتيزورين، ضربوا عليهم النقب شي قمارة من زكوطة كل واحد يا واحد، كانت بوحدها في الدار مع العيالات وأولاد اخوتها، عمرت بوحبه وطلعت للسطح، أطَّانْ! جَابَتْ لَكْ واحد فيهم من عام الاول، هربو الاخرين، وهي نزلت جرت الجيفة وكسلتو في الروا حتى جاو خوتها عاد دفنوه. أمرة واش من امرة حسن من عشرة درجال. الهيه حْدَا الطريق الفوقية، ولد عمر الريفي، حداه المرأة الاولى، اللي خطف من الريف الله يكون لنا وله.

تدخل أحدهم، مؤكدا ومستفزا يامنة، ياك اعزيزي سَلاَّم.

أجابته أصوات متقاطعة:

. ألا، أشْ من يامنة، هديك ما تعقلوش عليها كاع انتوما، هذي فطوش يمان محمد وأحمد اللي ماتوا الله يرحمهم قبل أباهم.

دارت معركة صغيرة حول الموضوع، حسمها سلام بصوته الحاد.

. يامنة أسيدي الله يرحمها كانت من أهل الله، راه القبر ديالها، فيامات فرنسيس، كانوا تخبعوا عندها محند أو بنعيسى، وحمادي ولد شعيب، ملي قتلوا هداك النصراني في وقت الزيتون.

علق صوت باحتداد:

. على النصراني ما شي قتلوه ولاد الفقيه السِّي محند لله

فردت عليه أصوات غاضبة، استمر بعد هدوئها صوت قاسي النبرة:

. باز أسيدي شحال دقلة الحيا، على أنت حضرت لهم لله!

استمر سلام:

. جلسوا عندها ثمان أيام، كان عام الجوع، الدار المخيرة هنا فبومندرة ما عندهاش حفنة ذْ الشعير، وكانت هي كل نهار كتنزلهوم فباب البيت واحد المنديل، وواحد الحلاب، ملي كيهزوهم كَيْصِيبُو المنديل فيه محرشة ذْ السميد ما زال سخونة، والحلاَّب عامر باللبن، وهي العافية ما شعلت عندها في الدار اكتر من ربعين يوم. الله ينفعنا ببركتها!

أما المرأة اللي هضرت عليها راه القبر ديالها حدا ولد عمر الريفي، هي فطوش خطفها المرحوم من الريف وجابها كَتْرَبِّي محمد الله يرحمو. كَلْسَت عندو عام ما مسها ما قربها، كانوا الناس كيوقفوا في الحجرة ديال الظهر، قبالة الدار وكيتصنتو، من اللي كتودن العشا، والدريز عندهم في الدار،

دَ دَ دَ دْ، دَ دَ دَ دْ، دَ دَ دَ دْ، المرحوم، تَسمَعْ الزهير ديالو من سلفات، الشحيط ديال الحبل كما تَيْشْيَّرْ بِهْ تسمعو من أين لاين، وهي عمر شي حَدْ ما سمع حسها. كانو الناس كيسمعوا لخبيط درجليها، تقول سُربة دلخيل والحس والو!

علق واحد من الجماعة مُتَخَابِثاً:

. هاديك خاصها المُفِيد أوليدي.

ضحك الناس، ثم استأنف سلام:

. وهنا، قبالت هذا المقابر، ملي جا راجلها الاول من الريف هو وولد عمو، راه القبورا ديالهم مطرفين، عند الجدرة دَ الشيبة، لهيه، ثَمَّ وقع اللي وقع. كان أسيدي داك النهار في ايَّامَاتْ الله لخميس، في الاول دْرْجَبْ، هذي عاودها لنا ولد عمر الريفي بفمو. قال أسيدي، تسوقت لاربع، ملي رجعت لقيت فطوش جَالسة في العتبة دالبيت فاين مْوَلْفَا كتكلس والدموع ديالها بحال جوج عيون. الله ينعل اللي كذب عليكم، نزلت الشواري، وخرجت، ما رجعت حتى صلينا العشاء في الجامع الفوق، مع الفقيه سي بدو الله يرحمو مسكين، لقيتها أسيدي طيبات الطجين، وخبزت شي محراشات دالسميدة كلينا اللي كتب الله. ما اللي جابت لي نغسل، بديت كنقول لراسي، واش نُوضْ هاد الليلة عاود نتقاتل معها. شفت فيها، الله ينعل اللي كذب عليكم وجهها بحال الى هزيتيه وبدلتيه ما تعرف واش وجه أو فاكهة واش لحم ولا ضو، واش ماء ولا عافية. أنا مزال كنحقق فيها، واحد الساعة وهي تجفل وترمي كل شي اللِّي في يديها، خرجت لبرا كتشوف في السما بحال الى

كتحسب النجوم، وتمشي تجري للقبلة وترجع للغرب ووجها للسما. قلت صافي هادي تْسَكْنَتْ، خرجت الطبلة من البيت وجلست تَنْخَمَّمْ، أش هاد المصيبة درت لراسي أربي سيدي. بقيت هاكداك حتى دَّاتني عيني، قليل ولا كثير ما عرفت. ملي فتحتهم، شتها في وسط البيت، حانيه كتفسخ التكة دالسروال، حليت عيني مزيان، شتها نزلت السروال وطواتو، وحطتو في الركنة، وفسخت حزامها دالصوف وعلقاتو على الوتد هزت الفنار وهبطت له الفتيلة، ومشات للحنبل اللي كَنْعَسْ عليه واتْكَّاتْ. قال لك ولد عمر الريفي أسيدي من داك الليلة شداتوا واحد الرعشة، بقات فيه مسكين حتى مات. وهداك النهار المعلوم، ملي ناض فالفجر يمشي للصباب يتوضا، بقا كيحسب شحال دَوْزَت عندو فطوش، لقا عام وثلاث أيام، ما عَمَّر سمع منها كلمة واحدة. دار جلابتو على كتفو وملي حنا باش يخرج من الباب، قالت لو:

. ادِّي معاك التْسَاعِيّة.

جمد في موضعو وقال: أش قلت لله!

قالت:

. ادي مُعَاك التْسَاعيَّة!

وهداك الشي ما كان، توضا في الصباب وطلع، ما اللي كان دايز من مور ديك الصابرة، شاف الراجل وولد عمو. طَّانْ لهذا، طان للآخر، واحد جابها لو هنا (وأشار إلى وسط جبينه) ولآخر، هنا (وأشار مرة ثانية إلى وسط جبينه). الضربة ديال بني ورياغل الله يحفظ!

بدأت المجموعة تتحرك من مكانها فختم سَلاَّم قائلا :

. أش داز ف هذا الدوار، أش من علماء، أش من رجال، أش من سْبُوعَا، فاين الفقيه السِّي عبد السلام فاين السِّي بن علال، فاين الحجاج بثلاثة، فاين الفقيه السِّي امحمد، فاين الفقيه السِّي جدي، السِّي حمو، فاين الطلبة اللي كانو كيعمرو الزاوية الدرقاوية من بعد العصر، فاين داك بنادم اللي كان في ايفريسون وايزيزدن، وتيزورين. بحال الى دَوَّزنا شي حلامة.

أحس الجميع بحسرة الشيخ فنزلوا المنحدر صامتين. كانوا أقل من عشرة أشخاص، كانوا سبعة. سلام، وهو آخر من تبقى من رجال عائلة الفرسيوي في الدوار، محند العكيوي وأخوه من أبيه مزيان، حمادي بن شعيب الصغير، أحمد ولد هموشة، أحمد ولد محند سلام، والفقيه السِّي مُحَنْد أوبنَّاصر إمام المسجد. أما النساء فقد بقي منهن في الدوار ست عجائز، هموشة أرملة الفرسيوي، ويامنة أخت عمر العكيوي، حادة أو عكي وهي أرملة عمر العكيوي وأم ولده مزيان. كنزة بنت السِّي بن سلام وهي عمة أحمد ولد محند سلام وزوجة سلام الفرسيوي ورقية بنت علال الفرسيوي وهي زوجة الفقيه السِّي محند أوبنَّاصر. وامرأتان في مقتبل العمر، فاطمة بنت الفقيه السِّي حمو وهي زوجة أحمد ولد هموشة، ونجمة المعروفة بالشلحة، وهي زوجة حمادي بن شعيب، تَزَوَّجَ بها في زمور عندما كان يشتغل هناك في الكروم.

وكان في المسجد خمسة طلبة من حفظة القرآن، جاءوا

من قبائل جبالة وزمور. ولم يكن في القرية كلها سوى طفل واحد، هو ادريس ولد حمادي نَ شعيب، البالغ من العمر عشر سنوات والمحبوس في فناء الدار المهجورة، لولاد السِّي بلحسن يعدو في ترابه الأبيض طول النهار ويعوي مثل ذئب. وهو آخر طفل أنجبته القرية، وتلقته عائلة حمادي مثل قدر غامض.

في الأيام الأولى لظهور ادريس بتشوهه الجسدي أشاعت العجائز أن السبب في ذلك يعود لخفة أمه وأنها شوهدت ذات يوم تمازح العطار وهي حبلى وتشتري منها بنفسها قطع العلك الأحمر، وعكار الشقفة، وأن أحدا مر ذات يوم فوجد حمارة العطار مربوطة في خرصة الباب، وهو غير موجود، فانزوى خلف أشجار الزيتون، حتى خرج العطار من خلف الباب، وهو يبحث بحركة مضطربة لمسمار حزامه عن الثقب المناسب. وذات يوم دعا الفقيه السِّي محند أوبنَّاصر يامنة وجلدها عشرين جلدة أمام الطلبة المخنثين الذين ارتفعت ضحكاتهم، وقبل أن يطلق سراحها، أمسك بأذنها الصغيرة وصرخ فيها.

. والله نعاود نسمع شي هضرة في الدوار حتى نقطع لك داك اللسان، العقيصة!

ومن يومها لم يعد أحد يذكر ادريس باسمه، صار الجميع ينادونه المبروك.

فإذا تأخر المطر كانوا يشكلون موكبهم الصغير ويضعون المبروك على رأسه ويمشون بعد صلاة العصر في أزقة القرية الخاوية يرددون مولانا نسعى رضاك على بابك واقفين، لا من

يرحمنا سواك يا أرحم الراحمين، وكان المبروك يعوي ويخبط بيديه على صدره فلا يصلون للمسجد حتى تمطر السماء.

ثم صار الناس يقصدونه للاستشفاء من الدمل والجرب والجروح، يأخذون قطعة من الصوف ويبللونها بريقه السائل باستمرار، ثم يضعونها على الداء، فلا يمر يوم واحد حتى يندمل.

يقع دوار بومندرة في الهضاب الشرقية لجبال زرهون، وفي المنطقة التي اصطلح على تسميتها بأهل الريف، لأن دواويرها تشكلت في أعقاب هجرات متلاحقة من الريف. وهذه المنطقة المحسوبة على شمال البلاد تتكون من دواوير بومندرة، ضهر الخلف، دكارة، دندانة، ضهر بن عبد الله، سيدي موسى، عين أبزيز، آيت العاشور، بوعسل، بني مرغَاز، كرمت، بومراق، عين سي عمار، الجعادنة، المصامدة، تازة ودواوير أخرى محاها الزمن، أو في طريقه لمحوها.

خلال مرحلتها الذهبية عرفت هذه المنطقة حروبا، وأحداثا طريفة، وأنتجت علماء ومقاتلين ومتصوفة لكن لم يعرف فيها أبدا أغنياء من الصنف الثقيل. ويرجع ذلك لاحتماء المهاجرين بالمناطق الوعرة، حيث لا توجد أراضي شاسعة خصبة ولا غابات زيتون، ولكن شخصين أو ثلاثة تمكنوا من امتلاك أراضي زراعية مهمة وغرسوا ضيعات الزيتون والكروم، فأصبحوا مدعاة للدهشة، ونُسجت الحكايات حول مطامرهم وخوابي زيتهم، وبخلهم الشديد. ثم جاء زمن الهجرة إلى

أوروبا، فبدأ الناس يستقبلون أشياء جديدة ومواد جديدة، ونسوا تاريخ العنف والقسوة والاكتشاف لينخرطوا في أحقاد طرية وهموم معاصرة.

وربما ظل في بعض الدواوير من لا يزال قادرا على تأمل الحاضر وتبدلاته. أما في بومندرة، فلم يعد أكثر الناس تفاؤلا وحظا يستطيع أكثر من ترويض حنينه دون نجاح كبير.

III

لم يهتم أحد بإخبار محمد الفرسيوي بموت أبيه، فلا أحد يعرف كيف يوصل الخبر إلى الريف.

تعودوا جميعا على زيارته السنوية في اليوم السادس والعشرين من رمضان، وعلى إقامته بينهم حتى اليوم التالي لعيد الفطر. وتعودوا على عطاياه للجماعة في تلك الإقامة السريعة، وعلى الليالي التي يحييها بالمسجد. تعودوا على بكائه في صلاة التراويح والفجر، وعلى إطراقه وهو يستمع إلى الصوت الرخيم للفقيه السِّي محند أوبنَّاصر يرتل القرآن مغمض العينين، واضعا يده اليمنى نصف مضمومة حول أذنه. وكانوا يظلون بعد سفره لأسابيع طويلة تحت تأثير مروره بهم، مرورا مليئا بالطرافة والشجى والمفاجآت.

لذلك عندما جرى الحديث عنه يوم دفن الفرسيوي أطرق الفقيه لحظة حتى نزلت على لحيته الحمراء دمعتان كبيرتان، مسحهما بهدوء، وتنحنح للسيطرة على نبرات صوته ثم قال بصوت مهموس:

ـ الله يجيبو على خير.

أما زوجة أبيه هموشة فقد كانت تلهج باسمه بين فينة وأخرى، فتصبرها يامنة، وتؤكد لها أن القلب يعلم، وأنه لا شك قد رف جفنه حيثما كان وخفق قلبه، أو رأى في منامه إشارة تخبره بموت الشيخ. فتكفكف هموشة دُموعها وتروي مرة أخرى حكاية اختفاء المرحوم لمدة خمس سنوات.

كان ذلك بعد زواجها منه بشهرين وسبعة أيام. خرج الفرسيوي قبيل الفجر، والقمر مثل الشمس، وذهب "لتَصبَّابْتْ" قصد الوضوء، ولما عاد بعد خمس سنوات إثر آذان الفجر بقليل كان شعر رأسه ولحيته ما يزال مبتلا. دفع الباب المتداعي لغرفته وأحنى قامته الطويلة، فإذا بهموشة تصرخ صرخة فزع أيقظت الدوار كله. الشاهد هو أن الفرسيوي الذي ظل لسنوات بعد ذلك يؤكد ويحلف على ذلك بأغلظ الأيمان أنه لم يغب سوى نصف ساعة اغتسل فيها بتصبابت وعاد للبيت قبل أن ينشف شعر رأسه ولحيته كان قد غاب خمس سنوات، وجاءت الأخبار بموته بعد سنتين من اختفائه. في يوم عرفَة رجع الناس من السوق ومعهم بَلْغَةُ الفرسيوي الصفراء المطرقة بالمسمار المدبب المعلوم، وقشابة الصوف ذات "الركَابية" الطويلة التي ظلت لباسه الأثير حتى ظهرت جلابة لاسافط في منتصف الستينات فأصبح لا يرتدي سواها. أمسكت هموشة القشابة وتشممتها، كانت رائحة الفرسيوي، تلك الرائحة التي ظلت عالقة بجسدها منذ قام عنها في تلك اللَّيلة وذهب للاغتسال، مَا تزال حارة، كأنه نزع القشابة في

تلك اللحظة. وقد ظل الناس لأكثر من ثلاث سنوات يتهامسون فيما بينهم أن هموشة قد فقدت عقلها، وأن موت الفرسيوي جعل المسكينة تخرف قبل الوقت. أما هي فكانت تردد، بمناسبة وبدون مناسبة، أن قلبها لم يتغير، ولذلك فإن الفرسيوي ما يزال حيا يرزق حتى سمعوا صرختها في فجر ذلك اليوم، فهرعوا للبيت، واقتحموه متوقعين أن يجدوا المرأة مقتولة أو مغتصبة، لكنهم لم يصلوا باب الغرفة الموصد حتى غمرت أسماعهم تأوهات هموشة ولهاث الفرسيوي، فجمدوا في مكانهم بين ملتذ ومستنكر، حتى حلت السكينة، وبدأت خيوط الفجر الأولى تنسكب على المكان. عند ذلك صر الباب صريرا مكتوما، وخرج الفرسيوي للاغتسال مرة أخرى.

قالت هموشة التي كانت تقف حياء بالحكاية عند صرخة الفزع التي أيقظت الدوار، مُؤَمِّنَةً على مواساة يامنة: إن القلب يعلم فعلا بكل شيء. لكن يامنة التي كانت تمزح حتى في الجنازات أكملت الحكاية حتى آخرها، وأقسمت أنه لم يبق في الدوار رجل لم يباشر زوجته في ذلك الفجر، بل لم يبق حمار ولا بغل لم يضرب خلقته في أحشاء أقرب حيوان إليه، حتى أن ثور ولد السِّي حمو ظل اليوم كله ينكح الأتان المربوطة حتى قلنا هذا يوم القيامة.

وضحكت النساء وترحمن على الفَرسيوي، وآمن الجميع بأن محمد سيحل بالدوار ليلة "التفريق".

وفي فجر اليوم التالي، كانت يامنة التي أمضت ليلة الوحدة الأولى مع هموشة تسأل هذه الأخيرة هل سمعت آذان

الفجر، عندما صر الباب بقوة، وسمع وقع خطى، وحركة إنزال أشياء من ظهر دابة قلقة. قفزت هموشة من مكانها، وكانت يامنة ما تزال تتلمس طريقها في الظلام الدامس للغرفة، عندما سمعت نواح هموشة وشهيق محمد الفرسيوي.

عندما طلع النهار، كان محمد يجلس القرفضاء أمام صينية القهوة وقد جلس إليه كل من الفقيه السّي محند أوبنَّاصر، وسلاَّم الفرسيوي ومحند العكيوي، وهموشة ويامنة، وراح هو يحكي كيف حدثه قلبه بما جرى، وذلك حين استيقظ في جوف الليل فإذا جفنه الأيمن يرف بقوة، فلم يكد ينتبه لذلك حتى ثقل صدره بشيء غامض ظل يغالبه حتى قبيل الفجر، فأخذته سنة من النوم فإذا به يرى في ما يرى النائم هذا المكان الذي نشرب فيه القهوة، والمرحوم كعادته عند تلك العتبة وأنا طفل ما أزال. فجأة وقع علينا ظل كبير كأنه سحابة، وعندما رفعت عيني رأيت طائرا ضخما في بياض الحليب ينزل صوبنا. تنحيت مذعوراً، فإذا الطائر يمسك المرحوم بمخالبه ويطير به في زرقة السماء.

تعالت الأصوات مهللة مكبرة فدمعت عينا محمد، ثم ارتعشت ملامحه، واهتز صدره بشهيق مكتوم.

فتح الفقيه سورة الملك التي تنتهي بتلك النهاية الجميلة المرعبة، ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾ [الملك: 30] فهدأت السورة انفعالات المجلس، وسمح أداء واجب هذا الترحم القرآني بالرجوع إلى أمور الدنيا بنوع من الجرأة والاطمئنان. حكى محمد كيف نهض إذن من حلمه

متأكدا أن والده سيموت فجر هذا اليوم، وكيف أن التدبير الإلهي جعل هذا يَوم سوق أسبوعي تنزل فيه الشاحنة فجرا من تيفنوت، إلى أكويم الشيء الذي سمح له بالسفر فَوراً، فلم يؤذن العصر حتى كان في مراكش.

كان محمد يحكي تفاصيل سفره غير عابئ بالدهشة التي عقدت ألسنة الحاضرين: تيفنوت، أكويم، مراكش، الدار البيضاء. وفجأة انتبه محمد إلى أنه قد كشف في هذه اللحظة بالذات كل أسراره التي ظل يرعاها بدقة لأكثر من عشرين سنة.

سأل الفقيه عن كل هذه الأسماء الغريبة، في أية قبيلة توجد من قبائل الريف، فلم يجد محمد بدا من الاعتراف بأنها لا توجد في الريف أصلا، وأن الله قد جعل وفاة المرحوم سببا في إخبارهم بالحقيقة، إذ أنه لم يذهب أبدا إلى الريف، ولم يسكن أبدا في دارهم الأصيلة الموجودة في دوار بوضيرب وأن الرسائل التي كان يحملها، والأجوبة التي يجيء بها لم تكن سوى تخريف في تخريف. نهض الفقيه مضطربا، أخبار الخير إن شاء الله، ولف السلهام الأسود على جسده ثم مضى.

أما سلام فقد ظل مسمرا في مكانه، وعندما لمح محمد الفرسيوي تعابير وجهه أدرك هول اعترافه، وما فعله ذلك في الشيخ. حاول أن ينسج جملة واضحة على سبيل الاعتذار لكن الشيخ أوقفه بحركة من يده، ففهم محمد أن عمه يحاول بدون شك أن يدفن تلك السنوات العشرين التي عاشها على وقع زياراته السنوية.

خلال عشرين سنة ظل محمد الفرسيوي يروح ويجيء بين

حنين أهل الدوار، وبين أمكنة وشخوص لم يتعرف عليها أبدا. كان ذلك منذ السنة الأولى التي قرر فيها مغادرة القرية بصفة نهائية. قضى سنة يتنقل بين مدن وقرى، يدخل الأسواق فلا يكاد يظهر بقامته المديدة ورأسه الأقرع حتى يتحلق حوله الأطفال والشباب: ها الاقرع جا ها الاقرع جا. ها الاقرع جا. ويكون ذلك بعد صلاة العصر. يتطوع بعض الشباب فيرشون الحلقة، ويشطبونها، ويرتبون صفوف الشيوخ الجالسين في أمكنتهم المعتادة والأطفال في الصف الأول. يقتعد محمد الفرسيوي جلدة الماعز التي جاءت معه من بومندرة ويبدأ في سرد الأحاجي، كل تلك الأحاجي التي حفظها من أبيه لسنوات طويلة، واستظهر شخوصها ووقائعها بينه وبين نفسه، وهو يمشي في الطريق، أو يتقلب في فراشه.

أثناء عودته الأولى في اليوم السادس والعشرين من رمضان محملا بالهدايا فكر بما سيقوله للفرسيوي، ولهموشة: كيف سيجعل طالب القرآن الذي ذهب للبحث عن "شرط" في بلاد الله الواسعة مجرد حكاء في حلقة يمد يده للمحسنين، وكيف سيقبل الفرسيوي أن يتاجر ولده الوحيد بعمر كامل من الحكايات.

عند ذلك ولدت الفكرة في رأسه. اختبر نفسه أولا باستعراض ما يعرفه عن الريف فوجد ذلك واضحا وسهلا. لقد حفظ كل شيء خلال جلساته الطويلة مع المرحوم، ومع ابن أخيه سلام. إنه يعرف الطريق من بوضيرب حتى عزيب مضار حجرا حجرا، وشجرة شجرة، ويعرف الطريق من بوضيرب

للناضور كأنه يمر منها كل يوم. يعرف الدوار بيتا بيتا. يعرف الحقول وعدد أشجار اللوز، ومنابع الماء والفقهاء وأسماء الرجال والنساء والأطفال، وكل ما وقع لهم من أحداث وطرائف. ويعرف أسماء الموتى موت الله، وأسماء القتلى ومن قتلهم. يعرف قصص الغرام، وما نتج عنها من معارك، ويعرف الخيانات الزوجية، والأكاذيب والإشاعات والمجانين والأولياء والمتصوفة وأهل الله. يعرف ذلك كله كما كان في ذلك الصباح البليل من شهر رمضان الأبرك، الموافق لشهر مارس من سنة ألف وثمانمائة وستين ميلادية. كما كان يعرفه شاب يافع في الثلاثين من عمره هو المرحوم علال الفرسيوي، كما رسخ في ذاكرة الطفل سلام، وهو في عين الشواري على ظهر الحمار الأشهب، ينظر بعينيه البليلتين إلى شجر اللوز المزهر ويمضغ كرموسة يابسة، ويكاد يفقد عقله من صراخ إخوته حمادي وحدو، وعبد الواحد يعرف ذلك كله كأنه عاشه لحظة لحظة، كأنه ليس مجرد حكايات وأحاجي وأوهام.

كان في طريق عودته الأولى. وقفت الحافلة الذاهبة من الدار البيضاء إلى مكناس في الخميسات، فهرع محمد إلى أقرب دكان، واشترى دفترا صغيرا، من النوع الذي يقيد فيه التجار الديون والمعاملات، وأمضى الطريق كله في ترتيب الأماكن والأشخاص، المواليد والأموات، المصائر والأقدار، الأفراح والأتراح، لقرية مر على تجميدها في لوحة الحكاية قرن ونيف، مستعينا في ذلك بقدرته الفائقة على تركيب الحكايات، تلك القدرة التي ورثها من المرحوم علال

الفرسيوي الذي قاوم الفقدان العميق المترتب عن هجرته بسيل عارم من الأحاجي.

وعندما جلس محمد في مجلس الفرسيوي بعد صلاة التراويح ورأى ما كان يرتسم على وجه سلام من تعابير الدهشة والفرح والحزن والبهجة والألم، وهما يستمعان لأخبار دوار بوضيرب وما جرى لأهله في حرب الريف، وفي المجاعة التي تلتها، وفي أحداث 1958، وما جرى لعائلة فلان ومن بقي من أحفاد فلان وفلانة، ولمن آلت ملكية الدار الفلانية، والحقل الفلاني ؛ عندما رأى بعينيه حياة صاخبة تدب في جسم حكاية ميتة، قرر بينه وبين نفسه أن لا يطلع على الحقيقة سوى كائن واحد هو هموشة وأن يستمر في تصريف شؤون هذا الحنين عبر ذلك الدفتر الصغير إلى الأبد. فأحس بنفسه سجينا وسط حيطان عالية.

IV

دخل سلاًّم بيته قبيل الظهر. كانت زوجته كنزة بنت محند سلام تخبز، عندما سمعت صرير الباب، فلم يدر بخلدها أن يرجع سلام في هذا الوقت. انتظرت صوت يامنة فإذا بها تسمع نحنحة الشيخ، وفرقعة عصاه على حجارة الفناء.

هرعت نحو الباب مقطبة، فرأت فورا في ملامح سلام تعبير رجل مكسور. كانت عيناه تبحلقان في اللاشيء، وكانت شفتاه المزمومتان تفضحان بكاء مكتوما، أو ألما. أعانته كنزة على دخول الغرفة الوحيدة التي ظلت واقفة في الدار، وسط أكوام من الحجارة المتراكمة والأتربة اليابسة. أقعدته في صمت، وراحت تجلب ماء. وعندما رجعت ومدت الإناء للشيخ لم يستجب. ظلت تنتظر يديه، وانقشاع الضباب الذي لف بصرها وهي تعبر الفناء المشمس، وعندما استطاعت أن تبصر بوضوح رأت مذعورة أن سلام كان فاغرا فمه، مصفرا جامدا، كأنه جذع شجرة يابسة. وضعت "الحلاَّبْ" جانبا ومدت يدها نحوه حتى إذا لامست كتفه، اندفع الرجل خلفا وسقط على قفاه.

مرت لحظات الذعر الأولى على كنزة مثل دهر. كانت في غرفة معتمة، قرب جثة هامدة، هي التي كانت أضحوكة الدوار لشدة ما يرعبها الموت والجثث والأماكن المظلمة.

وعندما أدركت أن الأمر الذي طالما أفزعها وأطار النوم من عينيها قد حدث فعلا ، وأن سلام قد فارق الحياة، ولن يستطيع أبدا أن يعود قبيل المغرب لمنع الأشباح والعَفاريت من إزعاجها بمرورهم بين الخرائب، بضحكاتهم، ودقات مهارزهم وصراخهم المرعب، وأن عليها أن تعيش منذ اليوم في هذه الغرفة الوحيدة التي امتلأت الآن بروح ميت جديد وتأكل وتنام فيها ، وتفتح فيها عينيها في عتمات الليل حتى يقبض الله روحها ؛ عندما أدركت ذلك أعادت شد منديل رأسها بإحكام، وقرأت في نفسها سورة الإخلاص ثلاث مرات، وآية الكرسي سبع مرات، وانكفأت على الشيخ فأسبلت جفنيه ومددته، وخلعت نعليه وأطلقت ذراعيه على جنبيه، وأمضت وقتا طويلا تضغط فكه الأسفل على فكه الأعلى، حتى أغلقت فمه المفتوح، وشدت عمامته التي انفسخت. فعلت ذلك بهدوء شديد، كأنما لتطيل إلى أقصى حد ممكن كل هنيهة رعب تعيشها مع الجثة، ثم اتجهت للسدة، وسحبت منها "الحايك" وغطت به الجثمان الذي استطال حتى أصبحت قدماه خارجتين من الباب.

بعد ذلك، اتجهت نحو "كانونها" فخطفت الخبزة المحروقة من مقلاة الطين.

قالت محدثة نفسها :

ـ مَا مَكْتَابَاشْ، تعني الخبزة التي احترقت، وخمنت أن الخبزة لم تحترق لأنها تركتها على النار، ولكن لأنها خبزة

سلام الذي انتهى رزقه من هذه الدنيا. وعليها الآن أن تخبز خبزتها هي، هي التي ما تزال من أهل هذه الدار.

أضافت أغصانا يابسة لنار الكانون، وطرحت خبزتها. جلست على الحجر الكبير الذي وضعته في هذا المكان منذ سنين طويلة، عندما لم تعد قادرة على الخبز وقوفا، وراحت تراقب صفحة العجين الأسمر وهي تمتلئ رويدا رويدا بفقاعات بليلة يحدثها البخار المتصاعد من الوجه الآخر القريب من النار. وصلها دخان خشب لم يحترق جيدا فدمعت عيناها، دمعتا من الدخان أولا، ثم التقى ذلك بخوفها وحزنها فصارتا تدمعان بغزارة حتى بعد أن انطفأ العود الذي سحبته من الكانون.

قلبت الخبزة من خلال دموعها، فوصلتها رائحة الخبز الساخن، خبز الشعير الذي لا تتقنه امرأة مثلها في الدوار. كانت رائحة شهية، ممتلئة، ولو قدر لها الآن أن تفتت الخبز في صحنها الصغير، وتضع فوقه قليلا من الزيت، وبعض أوراق النعناع البري، لأكلته بشهية كبيرة. ولكنها لن تفعل ذلك، لأنها لن تستطيع تخطي الجثة الباردة، والذهاب إلى الركن المعتم حيث توجد خابيَة الزيت، ومنديل الخبز والشمعة والبراد وزمبيل السكر والشاي. لو ذهبت هناك فستحس بظهرها باردا، وبركبتيها خائرتين، وقد تسقط فوق الجثة نفسها.

أخرجت الخبزة من المقلاة ووضعتها أولا على ركبتها، ثم قربت الطبق إلى قدميها وألقت فيه بالخبزة الحارقة.

لم يكن هذا المكان هو "كانونها" عندما كانت الدار واقفة وآهلة. كان هذا المكان مربطا لحصان سلام، وهذه

الغرفة كانت للضيوف، لذلك، فقد كان بابها الأصلي من الخارج، أما الدار الحقيقية بغرفها وأفرانها ومرابط أبقارها وعجولها فقد كانت هناك، في ذلك المرتفع الذي شكلته حجارة الخرائب وأتربتها.

وراء الركام كانت العرصة التي أصبحت اليوم مساحة جرداء. هناك كان سلام يقضي الساعات الأولى للصباح متنقلا بين الأشجار، وأحواض الخضر والنعناع. كانت العرصَة تغمر الدار بشذى أزهار الليمون، وكان الأطفال يخرجون إليها بعد الفجر، فيقطفون التين الأبيض والأسود من أشجاره المختلفة: الورناكسي النَّبْدار، العسال، عنق حمام، الغدان، الشعري، المساري، ثمرات معسلة ومشققة تلتهمها النساء والأطفال قبل الإفطار باردة برودة الله، ويضعون ما تبقى منها على فرشة الدوم فوق سطوح المنزل، لتجفيفها. ومن العرصة كانت تدخل أكوام الخيزو واللفت فتوضع في "مذاود" العجول، لأنها فوق حاجة الدار.

ألقت كنزة نظرة عجلى على الخراب المحيط بها وشعرت أن شيئا سخيفا هو في طريقه للحدوث. فبعد صخب الحياة وحقيقتها سيأتي العدم الشامل. كأن كل ذلك لم يكن سوى لعب، كأن كل تلك المشاكل، والمآسي والأفراح وأوجاع المخاض، والزيجات الصعبة، والبكارات المفتضة، وحفلات الختان، وغير ذلك من الضجيج لم يكن سوى تمهيدٍ أحمق لهذا الخواء الشامل.

وَلَدت كنزة من سلام ثلاثة عشر مولودا ؛ ثمانية ذكور وخمس إناث لم يبق منهم جميعا سوى حادة، المتزوجة في

سيدي قاسم، والعربي وعبد الواحد وأعمار الموجودين في ألمانيا، لا يعرف أحد أأحياء هم أم أموات.

كانت غرفتها تقع جنب العرصة على يسار المدخل الكبير، وفوقها مباشرة كانت تقع غرفة المهدي أخي سلام وزوجته السعدية وأطفالهم الأربعة، بعدها يلف السور عن اليمين، حيث تقع غرفة باديش الأخ الأصغر وقد ماتت زوجته ليلة دخوله بها فنشأت عن ذلك حكايات حول ضخامة ذكره.

دخل الموت هذه الدار لأول مرة عندما اختطف المهدي الفرسيوي وقد جاوز الثمانين، ولكنه لم يكن سوى شَابٍ في نظر الفرسيويين المتعودين على الأعمار الطويلة. قتله صهره امحمد العكيوي بسبب نزاع حول نصيب زوجته في ميراث أبيها. ثم بدأت مآسي الدار الكبيرة تتوسع كأن كلَّ واحدة منها تلد الأخرى: ماتت السعدية وأطفالها الأربعة في وباء التيفوس، واختفى باديش. يقال إن جنية رأته خلف سور العرصة يباشر البغلة، فاتخذته عشيقا، وما يزال حتى الآن يطلق صوته بالغناء وسط الخرائب كلما حل الليل. ناس يروحون، وناس يجيئون. فرغت الغرف، ثم امتلأت بالعرائس وعاد الصخب وصراخ الأطفال ولهاث المباشرات الليلية إلى الدار الكبيرة. ثم ظهر "الخارج"، لا يعرف أحد من أدخل هذه الحمى حتى صار الواحد يبيع دَوَّابه وصوفه وقمحه ويرحل: ترحل خلفه السنوات والحجارة، ويأتي الواحد منهم مرة واحدة فيقول أبني هنا وأبني هنا وأفتح الباب في هذه الجهة، وأشيد الحمام في تلك، ثم يذهب فلا يرجع أبدا. لا يرجع شيء يذهب أبدا.

أذن للظهر، فخفق قلب كنزة. سيلاحظ الفقيه غياب سلام فيبعث أحدا للسؤال عنه. ما الذي قتله يا ربي لله! الرجل كان مثل حصان، يأكل خبزة لوحده، ويفيق ليلا فيظل يجيء ويذهب في الغرفة من شدة الإنعاظ. والحمد لله لا توجد امرأة واحدة للزواج في الدوار، وإلا كان تزوجها. أي كمد هذا الذي كسر نظرته هذا الصباح، وأغرق ملامحها في انطفاءة الموت لله!

ظلت كنزة قرب نارها التي انطفأت، وخبزتها التي بردت، تضع السؤال تلو السؤال ولا تجد جوابا. هي لم تعرف أن سلام مات من حزن لا يقتل حتى ذبابة. لقد كان يمتلئ كل سنة بأخبار الريف مما يحمله محمد ابن عمه كل سنة، أخبار النساء والحقول والأشجار، وكان يُحَمِّلُ ابن عمه رسائل ورغبات، حتى إذا جاء بعد سنة كانت الرسائل قد نسجت علاقات وفرخت صداقات.

ومحمد المفتون بهذا الأمر لم يقف عند حد. حتى عندما أسر إليه سلام قبل خمس سنوات برغبته العودة للريف والتزوج هناك بامرأة صغيرة تقدر على المباشرة، لأن عمتك كنزة أوليدي لم يعد هناك أي فرق بينها وبين البقراج، لا لحم ولا حس كأنك تضربه في الرماد. هاي هاي أعمي سلام، وما تزال فيك القابلية لله! فيجيب سلام ضاحكا: القابلية لله فِيَّ القابلية والجاهلية، والله أوليدي لا أضع رأسي على الوسادة حتى يصبح معي شيء كأنه حديد محمي. لم يتردد محمد الفرسيوي في تعيين المرأة المناسبة، هي عكشة بنت امحمد المرابط.

عندما غادرت الريف لم يكن امحمد المرابط قد ولد بعد، لكنك تذكر والده فارس المرابط، فارس لله الله يا ودِّي شكون ما يعرفش فارس، السبع الذي قتل أربعين خلقا من الروميين لأن أحدهم قتل عمته في العين لله! إو أسيدي فارس الله يرحمو خَلَّى زوج رجال أحمد وامحمد، أحمد مات مع ابن عبد الكريم، وامحمد هو اللي تزوج فضيلة.

. شكون فضيلة لله

. فضيلة بنت الضباشي، هادي هي اللي كان الوالد الله يرحمو بغى يتزوج أمها.

. ايه، اينِّه، صافي عرفتها.

. إو هادي عكشة بنتها.

تزوجت خمس مرات، لا يقضي معها الرجل يومين حتى تقول له: ليس عندك ما تتزوج من أجله واحدة مثلي. وهي تقصد طبعا الحديدة التي معك!

توالت الرسائل بين سلام وعكشة، وتوطدت العلاقة وأصبح الأمر كله سنة أو سنتان ويخرج سلام فجرا ليلحق بابن عمه في السوق، ومنه يأخذ طريق العودة التي ما تزال بين عينيه منذ كان في عين الشواري، يحدق في الجبال والممرات وينصت إلى حوافر الحمار تنقر الأرض برتابة مهدهدة.

ثم ها هو محمد مثل شَمس يوم القيامة تصعد من جهة الغرب.

أفِلَتْ شَمْس ذلك اليوم، وكنزة قاعدة على الحجر البارد

الذي وضعته جنب كانونها منذ لم تعد قادرة على الخبز واقفة.

وها هي العتمات الأولى بدأت تزحف على أكوام الخرائب. ثم ها هي أصوات أهل المكان تنطلق مباشرة بعد آذان المغرب، منها صوت باديش يسوق الحمارة خلف السور، ومنها أصوات نساء وأطفال، صخب أفران ومطابخ، وَحْوَحَات أزواج يضاجع بعضهم بعضا. ثم ذلك الدق الرتيب في مهارز النحاس الثقيل دَّقْ، دق، دق، دق، رنين حاد يخرق المخ.

تعيد كنزة شد منديل رأسها بقوة وبعصبية. وتقول نصف باكية: أنا بالله وبالشرع معاكم، أنا غي ولية وحدانية ما بينيش وبينكم.

ثم تأخذها سَوْرَةُ غضب، فتصرخ: واش ما عندكم شغل غير هاد الدارلله!

وأخيرا تهدأ كنزة فتأخذ في قراءة سورة يس حتى إذا أنهتها قرأت البردة والهمزية وابن عاشر كما حفظتها سماعا من المرحوم أبيها.

قبيل آذان العشاء جاء الفقيه السِّي محند أوبنَّاصر ومحمد الفرسيوي، ودفعا الباب المتداعي. تنحنح الفقيه ونادى بصوته الصافي: عمي سلام، واعمي سلام. كان ذلك قبل أن يلمحا جسدا صغيرا متكوما قرب الكانون. اقتربا منه فإذا هو جسد امرأة بارد قرب خبزة باردة.

V

مات سلاَّم عن سن تناهز المائة وعشرين سنة. وبذلك فقد دوار بُومنْدَرَة آخر معمر من معمري عائلة الفرسيوي، أولاد وأحفاد علال أو فارس العكيوي، من قبيلة بين توزين. والآن لا يوجد في الدوار كله من يستطيع القول إنه كان في يوم ما في تلك الأرض البعيدة التي انطلقت منها هذه السلالة. لا أحد يستطيع أن يزاحم محمد الفرسيوي في ملكية الحكاية التي ابتدأت بنزوح غامض، وها هي تسرع نحو نهاية أكثر غموضا.

في رحلته القاسية من الريف، قضى الفرسيوي ستة أشهر وستة أيام، مر فيها عبر مساحات شاسعة من الغابات، والحقول والقرى. نام في مساجد كثيرة وأكل من صَدَقاتٍ كثيرة، وما أكثر المرات التي مال فيها إلى الإقامة في مكان ما أعجبته أشجاره ومنابعه، أو وثق بأهله، أو استأنس بعجائزه وأطفاله، ولكن ما كان يعزم على ذلك حتى يجد نفسه عاجزا عن التفكير في بناء بيت أو حرث أرض.

كان ينظر إلى أولاد أخيه وهم يجلسون في الشواري يمضغون الكرموس الجاف يبكون ويتشاجرون، ويضحكون كأنهم فراخ نسر في عشهم، فيقرر الرحيل فورا.

ربما كانت الإقامة في حد ذاتها تفزعه، لأنها تعني التسليم بفقدان الأرض التي تركها هناك، وهو لم يقصد بهجرته سوى التحايل على الوقت، ريثما تنتهي سنوات الجدب، وينسى ذلك الثأر الذي قضى على أفراد عائلة الفرسيوي.

بل إنه لم يفكر في شيء ولا قصد شيئا.

كان جالسا على صخرة الجماعة عندما سمع طلقة نارية، رددت الفراغات والجبال صداها الحاد، وأدرك من صوت الطلقة أنها لأخيه، من بندقيته ساسبو التي لا يملكها أحد سواه، وعرف معرفة اليقين أن القتيل هو حمادي، كبير عائلة القلعي، لأن أخاه أقسم يوم مقتل زوجته وأخيها على يد رجال قلعية ألاَّ يقتل النساء والأصهار كما يفعل الجبناء، بل لن يقتل سوى الرجال، أعز الرجال. وهذا ما جعله يقفز من مكانه فوراً ويجري مخترقا الوادي. وعندما دخل البيت الطيني المحاط بأشجار اللوز اليابسة، وجد الأطفال في نفس المكان الذي تركهم فيه قبل قليل، أي في تلك السلة القصبية الكبيرة التي كانوا يستعملونها لتخزين الذرة، والتي أصبحت منذ مقتل أمهم غرفتهم الخاصة.

كان ما يزال يتأمل الصغار اللاهين في دفء السلة المبلطة بالطين الأبيض الناعم، عندما دخل أخوه الكبير حاملا

الساسبو، وعلى وجهه علامات الرضى والاعتزاز.

وفور ذلك كان في طريقه للغرب، هاربا بالسلالة من بطش الثأر، ومن شظف السنوات العجاف. الأطفال في حفرتي الشواري يتصايحون مثل أفراخ روعتهم حَدأة، وهو خلف الحمار الأشهب يحاول أن يتخيل ما يسمونه الغرب، ويحاول أن يطرد من خاطره أنها آخر مرة يرى فيها أحجار الريف وأشجاره، ويشم فيها هواءه المشبع بالبارود والدم. قال أخوه الأكبر:

إذا وصلت فاس فاسأل عن الطريق إلى زرهون، فإذا وصلت الزاوية فاسأل عن أهل الريف، ستجد هناك شتاتا من بني توزين وبني ورياغل وقلعية وغيرهم.

وقال: إذا كبر الأولاد فأرجعهم إلى الريف، "امْرَاسَنْ أبْرِيذْ نْبَابَا نْسَنْ" [عرفهم طريق أبيهم، حيا أو ميتا].

وهكذا كان. اتجه الفرسيوي بتلك السلالة الصغيرة جنوبا باتجاه ما كانت تسميه قبائل الريف غربا، عبر الجبال الوعرة والممرات الجرداء، شهورا طويلة قاسية، حتى طالعته قباب فاس وسطوحها البيضاء ومآذنها، فتطلع الأطفال من عيني الشواري وجالوا بعيونهم الواسعة، وسحنائهم الصفراء في الألوان والزحام، وأطلق سلام أكبرهم ضحكات عصبية متقطعة، قلدها إخوته بهمهمات ونداءات مبهمة.

"فاين طريق الغرب لله بالك العود. فاين طريق الغرب أسيدي اينو، بالك الزيت، بالك الطريق".

ظل يوما كاملا في دوخة هذه الضجة، وعندما وجد الطريق إلى زرهون حث الحِمار الأشهب وهوى على مؤخرته بضربات لاسعة اهتز لها الأطفال فطفقوا يصرخون من جديد، لكنه استمر في عدوه حتى نأى عن ضجة المدنية وارتسمت الطريق أمامه زيتونا وكروما وغابات. عند ذلك توقف لأخذ نفس جديد قبل أن يستأنف الرحلة، وقد خضته تجربة المدينة الأولى، وملأته فجأة برغبة في الجلوس على صخرة الجماعة وتقديم حكايته للجالسين.

في ذلك اليوم البارد من أيام مارس كان قد تجاوز الزاوية حيث يرقد جثمان إدريس الأول، غادرها فجرا بعد أن زار السيد وبكى تحت كسوة الضريح، ولسعته وأطفال أخيه برودة الزليج في ضريح مولاي رشيد. كان قد توضأ في الخصَّة فلما استقبل القبلة وقف عليه شيخ قصير القامة، ذو لحية بيضاء ووجه مستدير وضيء، وأمسك بيده ووضع فيها قطعة معدنية لامعة حزر الفرسيوي أنها حَسَنِي، وهَمَّ بالرفض لأنه ليس متسولا ليتلقى الصدقة، لكن الشيخ ضغط بقوة على يده وأشار بأصبعه شمالا وقال هامسا مستعجلا: راه فاين كاين الخبزة!

همَّ الفرسيوي بالسؤال، لكن الشيخ تراجع إلى الخلف، وابتدع خطوتين ثم استقبل القِبلة وكبر.

صعد الفرسيوي شمالا خلف إشارة الشيخ. ضرب الحمار الأشهب فلم يستجب كعادته؛ كان يمشي الهوينا وأذناه مرخيتان كورقتين ذابلتين. اخترق غابة الزيتون بباب الفرجات، وهي تتكاثف صعدا حتى قمة الجبل، ومن هناك رأى خيوط

الفجر تنسكب على بياض الزاوية وخضرة قبة مولاي ادريس. ردَّدَ الفرسيوي جملة سمعها فجر ذلك اليوم من رجل دخل الضريح حاسر الرأس بادي التأثر:

. شاي الله أمولاي ادريس، فضحك الأطفال في الشواري ورددوا الجملة مشوهة بلكنتهم الريفية، فضحك الفرسيوي لذلك، وضحك الأطفال لأنهم رأوا الفرسيوي يضحك لأول مرة. واستمر الفرسيوي في ضرب الحمار الأشهب، وبدأت خضرة غامقة لأحراش وجنائن تلوح خلف ضباب الصبح، وسار الموكب الصغير صوب ذلك اللون الداكن حتى صار في مرتفع يطل على ذلك كله: يطل على سكينة خضراء، تضج برقرقات الماء وزقزقات العصافير. سار الفرسيوي بمحاذاة ذلك المشهد الصباحي النَّدِيِّ حتى وجد مرتفعا آخر يطل على امتداد أخضر تتخلله دور قليلة من طين أبيض. كان ما يشبه الهوة يفصل تلك المنطقة عن الموقع الذي وصله، حاول الفرسيوي أن يجد فيها معبرا فلم يفلح. وعندما اسْتَدَار ليرجع القهقرى، نحو المرتفع الأول، سقط "الأشهب" على ركبتيه أَوَّلاً ثم مال على جنبه وخر جثَّة بلا حراك.

أما الحافة التي مات عندها الحمار، فهي حافة بني مرعاز، وهي تطل فعلا على الدوار الذي يحمل نفس الإسم وتنتشر دوره اليوم بين ضفتي الممر حتى مشارف السهول الشمالية.

وأما المنطقة التي مر بها الفرسيوي حاملا الشواري على ظهره، مستحثا موكبه الصغير على المشي بين الحجارة الباردة

فهي "الظهر" الذي يبدأ بالمقبرة الحالية، وينتهي بمرتفع آخر يسمى تيزورين، ثم ايزيدن الذي يبدأ بحقل من أشجار اللوز والصبار وينتهي بواد الدشر.

من هذا المرتفع تأمل الفرسيوي المكان طويلا ثم نزل إلى مساحة خضراء بين الخمائل والأشجار فوضع الشواري وسطها وجلس يفكر في هذا المصير العجيب الذي لم يخطر له على بال.

هكذا نشأ دوار بومندرة.

بنى الفرسيوي عشا من جذوع الشجر وأوراقها ووضع فيه فراخه المتعبة، ثم أخرج من قعر الشواري بندقية بُوحبة الملفوفة في خرقة صوف، مع قضيبها وبارودها وعدتها. هيأ مكانا للنار في العش ثم جلس تحت أشعة الشمس لا يعرف من أين يبدأ.

لكن الأمكنة عندما تولد فإنها لا تنتظر من أحد أن يقود خطاها الصغيرة، لذلك فقد مضت سريعا تلك الليالي المرعبة التي قضاها الفرسيوي يحارب الذئاب المتعاركة حول عشه. مضت سريعا أيام القنوط، والحمى وتشقق الشفاه من أكل العسلوج والفواكه البرية الحامضة ولحم الأرانب المشوي بدون ملح. مر مهاجرون آخرون فحطوا رحالهم جنب الفرسيوي: جاء رجال ونساء وامتد دوار بومندرة من واد الدشر حتى حافة بني مرعاز، فنبتت الدور القميئة البيضاء وانتشرت الأبقار وقطعان الماعز، وبني المسجد وبنيت العين التحية، وتصبابت، وعين الدشر وعين بري، وعين ثبقيين، هذه للشرب

وتلك للوضوء وأخرى لغسل الجنابات، وواحدة لغسل الملابس، وأخرى لغسل الشوامي التي يعصر فيها الزيتون. بُنِيت الزاوية الدرقاوية وصارت تمتلئ عصرا بالأذكار والأمداح وتلاوة القرآن. حفظ القرآن أطفال لم يتجاوزوا العشر سنوات فطاف بهم أقرانهم في الدوار وجمعوا لهم البيض والسكر والدواجن واحتفلوا بدخول كتاب الله كاملا في صدورهم الصغيرة.

كثرت الزيجات والمواليد وتوسعت المقبرة، ونشأت خلافات وأحقاد، وحلت لعنة الريف مرة أخرى بهذا البلد الأمين فعرف سقوط أول قتيل. كان القاتل هو الفقير طُوطُو، أما المقتول فغريب لا يعرف له أحد إسما. وقد أفتى الفقيه السِّي عبد الله أن يقضي الفقير طُوطُو بقية حياته لا يلبس إلا الصوف الخشن وأن يطوف في الأسواق معترفا بجرمه. وذلك ما فعله حتى شاخ فأصبح مؤذنا للمسجد وظل كذلك حتى مات.

ظهر الفقهاء والمتصوفة وأهل الله، منهم الفقيه السِّي عبد الله التقي الورع الذي تخرج من القرويين فآثر أن يبقى بين أهله ناصحا أمينا حتى مات ؛ والفقيه السِّي محند ؛ والفقيه السِّي محمد بن علال وأخوه السِّي أحمد بن علال. ظهر ولي الله مولاي أحمد الوكيلي، والمتصوف الحاج العربي بن الجيلالي، الذي كان يأتي مع طلبته من بني مرعاز ليصلي الجمعة فيرفع صوته الرخيم بالجلالة عندما يصل الحافة فإذا القشعريرة الربانية تسري في جسد الدوار كله.

ظهر التجار، وفقهاء من فاس جاءوا لزيارة الفقيه السِّي عبد الله الذي كان زميلهم بالقرويين، فأعجبتهم هذه الجنة الصغيرة المليئة بالخشوع والنية، فتزوج بعضهم هنا، واشترى أبقارا وأغناما واشترك فيها مع أهل الدوار. ثم تعرف بعض المغامرين من خلال فقهاء فاس على تجار فاس، فهاجروا معهم إلى السينغال وظلوا هناك لسنوات تزوجوا خلالها من زنجيات، وأنجبوا ريفيين سمرا بشعر أكرد ظلوا لسنوات محط سخرية قبل أن يكبروا وتنشأ الحكايات عن قُوَّتِهم الجنسية الخارقة.

ثم ظهر الاستعمار الفرنسي، وجاءت سنوات جفاف وجراد، ونشبت حرب الريف فذهب بعض الشباب هناك ليموت مع بن عبد الكريم الخطابي، ثم انتهت الحرب فجاء بعض أبطالها مكسورين: منهم المقاوم الفقيه بولحية، الذي لم يقض هناك سوى بضعة شهور ثم نفاه الفرنسيون إلى آسفي، ومنهم وزير مالية الخطابي السِّي محند الريفي الذي عاش في بومندرة لسنوات قبل أن يرجع للريف. وآخرون بنوا دورهم البيضاء النظيفة جنب بعضهم وتناسلوا مثل الجراد إلى أن جاء عام التيفوس، فبدأ الموت يحصد الناس صغارا وكبارا، وصارت الجنازات تخرج كل يوم، والمقبرة تكبر كل يوم، ولم يجد الناس ما يكفنون به الموتى فاستعملوا أغطية الصوف والجلاليب، ثم صاروا يدفنون الجثث بملابسها، وكان الناس يبكون موتاهم، ثم صاروا يخرجونهم في مواكب صامتة ويرجعون لأشغالهم بلا أحزان.

وجاء عام الجوع فماتت أسر بأكملها. تقاتل الناس على السنبلة الواحدة، وظهر "البون"، والترتيب، ولودن. وقال الناس هذا آخر الزمن، فلم يكن ذلك آخره.

ظهر مجاذيب يقف شعر الرأس لأقوالهم، منهم الخو ومولاي العربي، وظن الناس أن القيامة قريبة لا مراء في ذلك. لكن القيامة لم تقم. مرت السنوات القاسية وجاء المطر مدرارا، ورجعت الحياة إلى الغابات والحقول، وتناسلت الأرانب والثعالب والذئاب وأسراب الحجل حتى بدأت تلعب حول البيوت، وصار الفرسيوي، وقد بلغ من الكبر عتيا، يجلس في سطح البيت فجرا فيسقط بالطلقة الواحدة من بوحبة أربعة أو خمسة من طيور الحجل السمينة. ثم جاءت الوطنية وظهر جيل جديد يدعو للجهاد والتضحية في سبيل الوطن، واختلط معنى هذه الكلمة في أذهان الناس فصاروا لا يعرفون هل تدل على مكان أو على شخص، لذلك سموا الفقيه السِّي محند الوطنَ.

وعندما تلاحقت الأحداث مرة أخرى، فذبحت البرطقيزية في ضيعتها بزكوطة، وألقيت قنبلة يدوية على الخليفة الحيمر في يوم السوق بالزاوية، وبدأت الاعتقالات والتفتيشات، وظهر جيش التحرير، ثم الاستقلال وتبادل الناس التهم بالخيانة، واختطف بعضهم بعضا، وظهرت تقاليد جديدة مثل عيد العرش والبذلة العسكرية، والنشيد، قال بعض المسنين مرة أخرى: إن نهاية العالم قد قربت، خصوصا وقد مات الفقيه السِّي عبد الله في تلك السنة بعد أن قضى سنة كاملة شبه

مختل، ومات الفقيه السِّي امحمد، وولي الله مولاي أحمد الوكيلي، وهربت بنت من الدوار، فهاجر أبوها وإخوتها من العار. ولكن العالم لم ينته طبعا. مرت ساعات الضيق وعادت القرية للتناسل، وعادت الأصوات الصداحة بكلام الله لتملأ المسجد القديم والجامع الفوقي الحديث والزاوية الدرقاوية، واستقرت الأمور فسافر بعض شباب القرية إلى الريف في محاولة للعثور على ذلك الأصل البعيد، وهناك عثروا على بقايا نسب، وعلى أشواق مكتومة وحنين كظيم.

ومن هناك انطلقت أسراب هجرة جديدة نحو ألمانيا وفرنسا وبلجيكا وهولاندا: تقاطرت عقود العمل على شباب الدوار، وباع الناس أبقارهم وغلالهم للحصول على جوازات السفر الصعبة، وبدأت دورة أخرى في حياة بُومنْدَرَة، بدأت بازدهار مدوخ أوصل إليها أجهزة الراديو والأواني والمصابيح المشتعلة بالبطاريات وزرابي المصانع، ثم آلت إلى ضمور محزن. وكل هذا مر تحت بصر الفرسيوي، وابن أخيه سلام وهما الشخصان الوحيدان اللذان عاشا يوما بيوم كل هذه الأحداث وما لا يعد ولا يحصى من التفاصيل المرتبطة بها.

حدث هذا الضمور دون أن يحس به أحد. حل تدريجيا بهجرات متباعدة وميتات مفاجئة، ونهايات غير منتظرة، وبدأت بعض الدور الفارغة تسقط أنقاضا على أنقاض فتملأها الأعشاب والثعابين. هكذا شرع الناس يهربون من الخرائب ويتجمعون حول بعضهم، فتقلص الدوار وأصبح لا يوجد بين حافة بني مرعاز ووادي الدشر، سوى ذلك التجمع الصغير

المحيط بدار الفرسيوي التي بُنِيت في موضع ذلك العش الأول، وهو كما سلف مجموعة بيوت قميئة بيضاء تتكوم فوق سطوحها أكوام الحطب الجافة، ويكسر صمتها الصافي من حين لآخر عواء المبروك سجين دار الفقيه السِّي بلحسن المهجورة.

VI

عندما عاد رجال الدوار من السوق ذات مساء دافئ من أماسي أبريل، وحملوا معهم قشابة الفرسيوي التي وجدوها قرب المقبرة، لم يعتبر أحد منهم هذه الحادثة لغزا محيرا. فاختفاءُ شخصٍ، أو موتُه، قدَرٌ لا داعي للنبش في خفاياه.

لذلك فقد سلموا القشابة لهموشة، وفي نيتهم أن ذلك سيريحها حتما من عذاب الانتظار. ولكن هموشة لم تستقبل القشابة كرسالة من الآخرة. كانت رائحة جسد الفرسيوي ما تزال قوية في صوفها الساخن، وكان ذلك يعني ببساطة أنه ما زال حيا في مكان ما من هذه الدنيا.

ثم إن أهل الدوار جميعهم استقروا على رواية يامنة التي رأته صبيحة يوم اختفائه راكبا على البغلة البيضاء، بغلة الشريف مولاي أحمد الوكيلي، متجها صوب السهول الواطئة لزكوطة.

روت يامنة أنها تبعت الفرسيوي منادية عليه بأعلى

صوتها، فإذا البغلة تطير فجأة مثل نسر هائل وتختفي بالفرسيوي في عنان السماء.

فسرت يامنة بعد ذلك ما رأته بِكَوْن الفرسيوي قد وقع على جنِّية فأغوته. وتبعها الناس في هذا التأويل خصوصا وأن الفرسيوي الذي كان مولعا بالصيد لم يكن يترك دغلا ولا مرجة إلا عبرهما فجرا ووقت الغروب، فكان إذا رجع حاملا أرنبا من تلك الأرانب الناعمة الكبيرة ذات العيون الحمراء، أو زوج حجل بألوانه الزاهية، استقبلته هموشة بصخب مفتعَل وأمسكت الطريدة وهي تؤكد للفرسيوي أنه يبحث عن حتفه عندما يطلق النار في الخلاء المظلم حيث لا يمكن التمييز بين الأرنب الحقيقي، والجني الذي يكون مختفيا وراء هيأته.

أما إذا رجع دون صيد فإنها كانت تعلق ساخرة بأن الفائدة ليست في وضع بوحبة على كتف والجراب الفارغ على الكتف الأخرى.

وعندما عاد الفرسيوي في ذلك الفجر المعلوم، وحدث ما حدث لرجال الدوار ولنسائه ولبهائمه، حاولت هموشة معرفة ما جرى خلال هذا الغياب، لكن الفرسيوي قطع دابر أسئلتها بتهديد صارم إن هي خاضت معه مرة أخرى في هذا الموضوع، الشيء الذي جعل هموشة تفشي سرا لم تكن تنوي إفشاءه فأخبرت يامنة بأن ذَكَرَ الفرسيوي قد أصبح عند عودته في ضخامة أرنب كامل، فتأكدت يامنة من أن الجنية هي التي أقدمت على هذا التغيير، وراحت تفسر لهموشة بأن الأمر لو كان يتعلق بغياب مع الإنس لما احتاج إلى هذا التكتم، لأن

الإنسان فاضح بطبعه، وكم رجل هاجر من الريف إلى الغرب وتزوج في مكان لا يعرفه فيه أحد، ومضت سنوات على ذلك فإذا بالأمر يفتضح بإرادة إلاهية قاهرة. أما الجن فهم يأخذون عهدا على من يعاشرهم، وإذا أفشى السر أزهقوا روحه. ونصحتها أن لا تلح عليه في السؤال لأن ذلك قد يدفعه إلى البوح، وفي ذلك حتفه المحقق. ثم أضافت بمزاحها المعهود: احمدي الله على اللِّي رجع لك، واحمدي الله على اللِّي تْزَادْ فيه.

وتوافق أهل الدوار تلقائيا على الصمت. لم يحدث أن سأله أحد أين ذهب وكيف رجع. كان الاعتقاد المشترك الذي لا يحتاج حتى إلى كلام هو أن الفرسيوي مر من تجربة ربانية لا يجوز الخوض فيها.

لكن الفرسيوي تغير كثيراً خلال سنوات اختفائه، فلم يعد يجالس الجماعة لِيَسْرُدَ لها الحكايات والأَحَاجي. صار يتهرب من ذلك، حتى إذا خلد للراحة في بيته، متكئا على عتبة الغرفة، بعد صلاة الفجر، راح يروي نتفا من حكايات، ويذكر أمكنة وأشخاصا، ويتحدث عن طرق ومواعيد. كل ذلك بنوع من الانغمار الشخصي في الموضوع، كأنه جزء من الحكاية وليس كما كان يفعل في السابق حينما كان يبدو مجرد رَاوٍ لأخبار من زمن سحيق.

وذات يوم كانت هموشة تنصت إلى هلوسته، فانتبهت فجأة إلى ألفة الحكاية وقربها من حياتهما المشتركة: فها هو الفرسيوي يأتي على ذكرها باسمها، ويذكر يوم أجهضت

حملها الأول والأخير قرب العين عندما رأت ظلا كبيرا يغشاها فاستدارت لتجد جسما ضخما مكسوا بشعر أسود غزير يتقدم منها ويطوقها بذراعين مثل فروة خروف. ثم يذكر تفاصيل من زيارتهما لأولياء الله بحثا عن خلف، ويذكر بالتحديد زيارتهما لسيدي علي بن حمدوش، ولسيدي عبد الله بن تعزيزت. يذكر الذبائح التي قدمها والجبال التي ناما فيها، ويذكر كيف كانا يرجعان من كل زيارة بشهوة لا مثيل لها يظلان أسيرين لسطوتها أياما وليالي لا يخرج فيها الفرسيوي إلا فجرا للصيد، ولا تقوم فيها هموشة إلا بضع ساعات لتهييء الطعام.

كانت هموشة تتابع فصول حياتهما المشتركة فتذهل للأثر الذي تحدثه مروية هكذا، كأنها حدثت لشخص آخر. وعندما كان الفرسيوي ينتقل من تلك الوقائع المعروفة إلى حكايات أخرى فيمزج بين ما تعرفه هموشة عن ليلتهما الأولى وما حدث لزوجة السندباد عندما دخل عليها بهلول ليلة سفر زوجها، كانت تجد ذلك طبيعيا كأنها تعرف السندباد وتعرف زوجته زليخة، وتعرف تلك الشهوة التي تفجرها المفاجأة والغرابة.

وذات يوم سألت الفرسيوي: ألا تكون هناك دعوة تخرج في الذين يصنعون الأحاجي من حياتهم نفسها مثلما يحدث في دعوة الولد الأقرع التي تخرج في الذي يروي الأحاجي نهارا لله فضحك الفرسيوي ضحكته الصاخبة المتقطعة وأكد لهموشة أن الإنسان عندما يعيش طويلا فإن حكايته البعيدة تصبح مثل حكايات عن شخص آخر، فوافقت هموشة على قوله. ثم

استأنف الفرسيوي حكايته التي كان يقطعها من حين لآخر بتعليقات تمس شؤون الدوار حتى بدأت تباشير الصبح تغمر مجلسه. عند ذلك انتقل إلى حكاية أخرى تحدث فيها عن رجل تزوج امرأة رآها في منامه. كان ذلك ذات صيف بعيد في ليلة حارة مقمرة. صعد الرجل إلى السطح وفرَّش الحنبل واستلقى على ظهره متأملا صفحة السماء الفوارة بالنجوم، فما لبث أن نام نوما عميقا، فرأى فيما يرى النائم نبع ماء صاف، ورأى نفسه منكفئا على النبع يغرف منه، فإذا به يلمح امرأة عارية في مرآة الماء: مدَّ يده فأمسكَتْها وتبعته. كانت بيضاء ثلجية فلم يستطع التحديق فيها، لكنه ضمها إليه وجرى بها حتى وصل إلى حنبل السطح. وعندما هم بها وقد رأى جسدها متهيئا اختفت فجأة ثم ظهرت تحت الزيتونة الكبيرة، وعندما لحق بها، اختفت من جديد، فصار يجري وراء ظهورها ويصرخ عند اختفائها حتى أفاق.

في الليلة الموالية نام في نفس المكان فرأى فيما يرى النائم أنه دخل دوارا لا يسكن فيه، ولكنه دوار بُومنْدَرَة، وسأل شَخْصاً في مدخل الدوار عن بيت العكيوي فدله عليه، وهناك طلب الفرسيوي يد هموشة، فأعطيت له. وأشهدوا على ذلك شخصين لا يعرفهما، لعلهما من الريف. وقبيل الفجر أخذ هموشة وهي نفسها المرأة التي ظهرت في منام البارحة، فحملها إلى السطح وهناك ابتدأت أول ليلة من لياليهما اللذيذة.

هكذا تزوج الفرسيوي.

كان ينام في السطح أو في التبن فلا يغمض جفنيه حتى

يجد هموشة عارية تفاجئه بالدخول تحت قشابته، وبمداعبة كل جسده بلسانها قبل أن تخرج رأسها من الفتحة الواسعة للقشابة، وتعض شفة الفرسيوي السفلى وقد أحست بشيئه الصلب يتلمس طريقه بين فخذيها.

حتى كان ذات يوم استيقظ فيه الفرسيوي فوجد هموشة أمامه تعيد ربط منديل رأسها المزركش. عندما سألها لماذا خرجت من المنام قالت إنها فعلت ذلك لأنها لا تستطيع الولادة حلما، وهكذا حملت هموشة حملها الأول والأخير. حتى كان ما كان، فرجعت للمنام، وحزنت سنوات لم تَتَعَرَّ فيها أبدا ولم تشهق ولم تعض شفة الفرسيوي، وكان هذا الأخير يذبح الديوك الوحيدة اللون في المقابر، وفي باحات الأولياء في سيدي علي، وسيدي أحمد الدغوغي، وسيدي عبد الله، فكان الناس يعتبرون ذلك محاولة لفسخ ثقاف يمنعه من الزواج، بينما كان هو يحاول فقط أن يعيد الشهوة إلى هموشة. وعندما يئس من ذلك، قام ذات فجر فاغتسل في عين تصبابت، واستبدل قشابته بجلباب صوف جديد واتجه صوب الزاوية.

هكذا اختفى الفرسيوي لمدة خمس سنوات. كانت ذاكرته تختزن تفاصيل الطريق التي سلكها من الريف إلى بومندرة، حجرا حجراً، وشجرة شجرة. كان يعرف الوديان والدواوير والمساجد التي يمكن النوم فيها والتي تسكنها العفاريت ليلا، فانغمر في رحلة متوترة كأنه راجع إلى حلم. طوال رحلته لم يجد شيئا من كل ما اختزنته ذاكرته قبل حوالي سبعين سنة.

كان يسأل عن طريق الريف فيُدَلّ على منافذ لم يسلكها، ويسأل عن دواوير فلا يجد لها أثرا، وركب في طريقه حافلات متداعية، ونام في أضرحة وزوايا لم تخطر له على بال، حتى دخل ذات فجر دوار بوضيرب. اقتعد جذع شجرة في مرتفع صغير يطل على الدوار، وراح ينظر إلى ألسنة الدخان الصغيرة المنبعثة من الدور البُنِّية، ورأى شجرة الزيتون التي كانت في باحة بيت الفرسيوي ما تزال هناك، ورأى تعليقة الدالية في باحة المسجد ما تزال، وأشجار اللوز المحيطة بالمنازل، والوادي ذي الأحجار الرمادية الذي يخترق الدوار من المسجد إلى طرف الغابة. رأى دوارا ضخما يملؤه خوار الأبقار وثغاء الماعز. زحام في الأسوار والأبواب والمسالك. وانتظر هناك حتى دبت الحركة فنزل مرتعشا صوب باحة المسجد.

يمر الفرسيوي سريعا على السنوات الأولى لعودته إلى الريف، فلا يذكر هل وجد بقايا من عائلته أو أخبارا جديدة عن أهله. بل ينتقل بسرعة ليتحدث عن رحلة هائمة في المنطقة تأخذه حتى البحر، وعن امرأة من الزْغنْغن قالت له إن الأمكنة أيضا تموت، وأن القرى التي لا يؤسسها أحد بنسله تتبدد مهما طال الزمن. وعند هذا الحد من الحكاية يصبح الفرسيوي حزينا، فيذكر أسماء رجال ونساء وأطفال، ماتوا، بعضهم تعرفه هموشة لأنهم من بومندرة، وآخرين لم تسمع بهم أبداً، ثم يعود للمرأة في الزغنغن فيذكر أنها ولدت ثلاث بنات دفعة واحدة، وأنه رأى في منامه الفقيه السِّي عبد الله وقف عليه وهو نائم في مكان ما كأنه سطح الدار في بومندرة، وقال له

غاضبا: علاش ما تجيبش الولد للجامع، ما تعرفش شحال دْ القرآن مْحَبَّسْ على صَدْرُو لله!.

. وفيان هذا الولد أسيدي الفقيه لله، سأل الفرسيوي، فأجاب الفقيه وقد لف السلهام الأبيض على جسمه وذهب محلقا:

. راه في بومندرة!

هكذا ينتقل الفرسيوي بسرعة إلى النهاية مخلفا انقباضا رهيبا في صدر هموشة التي قامت مباشرة بعد انتقال الفرسيوي إلى مكان آخر من الحكاية حيث يتعلق الأمر بحرب سيدنا علي مع رأس الغول، وانصرفت إلى كانونها تلقمه أعوادا جافة، وتضع عليه القدر الأسود لتطبخ حريرة الشعير الصباحية.

في ليلة ذلك اليوم مد الفرسيوي يده لحزام هموشة فأبعدته صارمة واستدارت جهة الحائط. ومرت بينهما فترة صمت سمع فيها الفرسيوي هموشة تبلع ريقها عدة مرات قبل أن تسأله فجأة:

. شنّو ظهر لك في فضيلة بنت عمر العكيوي لله

ولما لم يجب، جذبت الغطاء على رأسها ونامت مرتعشة.

وفي هذه السنة تزوج الفرسيوي فضيلة. مانع أهلها في ذلك أوَّلاً، ولكن الفقيه السِّي عبد الله طلب أن تسأل المرأة عن رأيها، والمرأة كانت صغيرة حقا ولكنها كانت مطلقة وتحب الأحاجي، فقبلت. فصارت هموشة إذا رأتها بعد ذلك مقرفصة أمام الفرسيوي تنصت متلهفة لأحاجيه تقول في نفسها ساخرة:

. "الله يمسخك، زعما جابوك الحجايات لله لو كان مَاشِي العَاقِصَة ديامنة اللِّي قالت لك شنو تحتو!"

أما فضيلة فكانت تسمع للأحاجي وتطلب المزيد، وكلما انتفخ بطنها صارت تطلب أكثر، كأن الذي في بطنها يطلب أيضا نصيبه. والفرسيوي لا يبخل ولا ينضب معينه. في كل يوم يمنح عن طيب خاطر شخوصه وأحداثه وحِكَمَه للزوجة التي تبدو مستعجلة كأنها جاءت فقط لهذه الغاية.

سِيَرٌ لأولياء ومغامرين ومحاربين. ضحايا وجلادون، ظالمون ومظلومون، عشاق ومعشوقون، نتف من حياة شخصية بعيدة صارت كأنها لشخص آخر، وشذرات من حيوات مبتدعة أو مستقاة من أحلام واستيهامات خصبة. أحاجي بالليل وأحاجي بالنهار، حتى جاء المخاض وقضي الأمر. وَوُلِدَ الأقرعُ في نفس اللحظة التي فاضَتْ فيها روح فضيلة.

VII

قضى محمد الفرسيوي ليلة واحدة في مسجد "عين السِّي عمار" الذي وصله ظهر ذلك اليوم فجلس إلى الجماعة التي التزمت له بشرطة وقرأت معه الفاتحة. وصلى بهم الظهر، ثم صلى العصر ببعض العجزة، والمغرب بعابر سبيل واحد. وصلى العشاء وحده. ثم أسند ظهره لحائط المحراب وظل يرجف خوفا ويقرأ القرآن حتى ظهرت خيوط الفجر من شقوق الباب.

سيقول محمد بعد ذلك، إن سنة خفيفة أخذته تلك الليلة فرأى نفسه في المنام واقفا على بئر يسقي منها بدلو من فضة والناس متحلقون حوله، وهو يملأ أقداحهم فلا يرتوون. غادر المسجد قبل أن يستيقظ الناس وهو يعرف وجهته، ولا يحس أنه مقبل على مصير غريب. كان الناس قد حدثوه ظهر ذلك اليوم عن شيخ يحتضر في الدوار، فخمن أن الشيخ سيموت حتما، وسيكون عليه كفقيه أن يغسله ويجهزه للدفن، فقضى

بسبب الفكرة نفسها ليلة بيضاء. كان عيد المولد النبوي قد حل، لذلك فقد وجد الزاوية صاخبة، تخترقها طوائف احمادشة وهي متجهة لسيدي علي بنحمدوش، وطوائف عيساوة وهي متجهة للهادي بنعيسى، فاستهوته مزامير عيساوة وطبولهم، وجذبتهم الأنيقة الجذلانة، فإذا بشيء كالريح يرفعه من الأرض ويحلق به. هكذا وجد نفسه في الزحام الشديد لدخول الطائفة باحة الشيخ الكامل. لم يدرك كيف قطع المسافة، ولا كيف تحمل مشاهد الدم والإغماء، كل ما رسخ في ذاكرته تلك النشوة التي كانت تجعل جسده مثل سحابة.

وخلال تلك النشوة بالذات رأى عينيها، أو على الأصح سقط فيهما كما يسقط الإنسان من مرتفع إلى هوة باردة.

كانت مترنحة في الزحام، مسلمة جسدها لهبوب الأنغام العيساوية الساحرة، لا تعير اهتماما لما يفعله التدفق البشري المنفلت من عقاله بجسمها السابح في اللجَّة. ودارت عجلة الزحام فلم يعد يراها، ثم دارت مرة أخرى فرأى طيفها يمر سريعا مثل برق خلب فأسكرته النشوة وقفز عاليا حتى رأى خضرة القبة، ورأى السيل العارم للزائرين بأقمصتهم وعماماتهم البيضاء، وبترنحات أجسادهم. ثم تراجع سريعا واتجه نحو السور المحيط بالباحة فاعتلاه، ومن هناك جال ببصره بين الأجساد المستسلمة لحركاتها حتى رآها، مرة أخرى، تلف على جسمها الحايك الأبيض الذي ينسدل على رأسها وكتفيها ويرسم على وجهها مثلثا لا يترك مكشوفا سوى عينين سوداوين واسعتين. ظل ينظر إليها وهو يحرك جسده يمينا وشمالا. جرت

أشياء كثيرة في الباحة لم يكن يرى منها سوى أشكالها العابرة: خيول مسومة، وقطعان من الماعز يتلقفها الراقصون حية ويمزقونها أشلاء، نساء يحللن ضفائرهن وينغمرن في جذبة صاخبة، صراخ وبكاء وزفرات، يعلو ذلك كله حتى يصير العزف مجرد خلفية له، ثم يخبو فتسطع الأنغام صافية مثل ينابيع باردة. أما هو فلم يكن يصله من ذلك كله سوى شيء فاتر بعيد. كان كيانه قد أصبح عصفورا في قفص تلك النظرة السوداء، ولم يكن يعرف ما يفعله. فقد خرج من بومندرة "لِيُشَارِطَ" في "عين السِّي عمار" وها هو الآن في باحة الشيخ الكامل يرقب طوائف الهادي بنعيسى ويستسلم بلذة لِنِدَاء كاسح يصعد نحوه من تلك الهوة. وهو لا يعرف ما الذي سينتج عن ذلك كله. هل سيفقد عقله فيهيم في الأرض أم سيخطفه خدام الشيخ ويفترسونه مثل جدي أسود. لا يعرف هل المرأة امرأة فعلا أم مجرد روح عابرة في هذا المقام. وقد قادته هذه الأسئلة لتخيل نفسه وحيدا مع هذه المرأة في جزيرة خضراء مظللة بأشجار الرمان وعرائش الدالية كما في حكاية السندباد، فلم يَجد شيئا يمكن القيام به معها سوى المشي فوق العشب والإنصات للعصافير واستمالة الغزلان البرية الجافلة. ووجد أن موقعه الآن فوق السور وموقعها هي في حلقة الجذبة أكثر إثارة، وأعمق وقعا من وجودهما وحيدين في تلك الجنة. وفي هذه اللحظة التقت نظراتهما فأحس بانسكاب شيء في جوفه، شيء لم يطق له صبرا فوقف للتَّوِّ مرتجفا واختلط ذلك عنده باهتياج حاد في جسده أثاره تغير الإيقاع نحو أنغام أكثر

تسارعا وامتدادا، فلم يحس بشيء مما حوله بعد ذلك. كان يصله من مكان بعيد اهتزاز جسده وارتماءاته الحرة بين الأجساد وصهيل المزامير، ولم يكن ليدرك إن كان ذلك يحدث له هو. بل لم يكن ليدرك أن ما يحدث له كان بسبب تلك المرأة أو بسبب ذلك الشعور بالحرية وقد أصبح خارج العش وخارج القفص، أصبح ريشا محلقا في زرقة لانهائية. وكان ما يزال يسبح في هذا الملكوت الوضيء عندما سمع آذان الفجر. آذانا جديدا على أذنه كل الجدة، ليس آذان بومندرة، ولا آذانه هو، ولا آذان الفقير طُوطُو. فتح عينيه فرأى مكانا واسعا يحتل وسطه صندوق ضخم مغلف بقماش أخضر، وتلف جدرانه حصر مزركشة لم ير مثلها أبدا، ثم رأى على ضوء شمعة ضخمة عددا هائلا من الأجساد المسترخية هنا وهناك، وفكر أنه ربما يكون قد مات، وأن هذا يوم الحشر، وأن الصوت إنما يؤذن ليوم الحساب. وكان ما يزال غير مستقر على قرار عندما قام رجل يطوف بين النائمين ويستحثهم على إخلاء الضريح لأداء الصلاة، فقفز من مكانه متذكرا جلسته على السور عصرا، وأدرك أن صلوات كثيرة فاتته منذ ذلك الحين، فمضى مستغفرا يسأل عن مكان الوضوء. وكان بادي الاضطراب والقلق فلم ينتبه للمرأة التي كان يسألها حتى أخرجت يدها وذراعها من تحت الحايك وأشارت إلى جهة خلف الضريح. كان ظهور ذلك الجزء من جسدها مثل إشْراق مفاجئ لشمس ساخنة. مضى مهرولا وقد أصبحت تلك البشرة الناصعة الوردية مثل نشيد يهز جسده. واضطر لمعاودة الوضوء

عدة مرات لفرط ما كان ينسى مَا الذي أنجزه من فرائضه. وعندما صلى ما كان بذمته وانتظم في صفوف المصلين لصلاة الفجر، امتلأت عيناه بالدموع وهو يدرك ما كان في صلاته من تقصير وشرود ذهن، فما إن سجد سجدته الأولى مع الساجدين حتى انخرط في بكاء غزير وهو يدعو ربه أن لا يَفْتِنَّهُ، وأن يجعل بينه وبين المعصية حِجابا.

وكان قد عرف هذا الخشوع الدامع مرة واحدة في حياته من قبل. كان ذلك عندما أراد تجريب ما سمعه من الكبار، فأخذ رفيقا له في المسيد وراء سياج الصبار، وكشف عن دبره، وفعل ذلك الشيء الذي انتهى بخروج ماء دافق من عضوه كاد يموت له من اللذة. وقد كان الشيء من الغرابة والقوة بحيث لم يتمالك نفسه ولم يجد أي حرج فراح يحكي تفاصيله للفرسيوي. فما كان من هذا الأخير إلا أن عمد إلى شجرة الزيتون وأخذ قضبانها الخضراء وأخذ يهوي على الجسد المدنس لمحمد قبل أن يأخذه لعين تصبابت ويعلمه كيف تغسل الجنابة وهو يشرح له ما ينتظره من عقاب الله لقاء ما اقترفه من إثم.

تقدم من حلقة الطلبة فور صلاة الفجر وانخرط بكل قواه في قراءة الحزب. لم يفتح عينيه طيلة القراءة. كان صدره منشرحا لتلك الكلمات النيرة التي يحفظها مثل جسده ولا يفهم أغلبها، وحدها يده كانت تتحرك مبسوطة للتعبير عن اقتناع صاحبها كلما كان المعنى هو التذكير برحمة الله أو بشدة عقابه. وفي ما عدا ذلك لم يخرج جسده عن رتابة ذلك التمايل

يمينا ويسارا، وهي حركة تهدهد الذاكرة وتلاعب تلافيفها الظليلة.

كان محمد يحفظ القرآن كما يحفظ أمكنة. يرى الربع والثمن والنصف والحزب كقطع من بستان يعرفه، ينتقل بينها مستخدما طرق الدوار، وبيوته وأشجاره، فكان إذا سها وأخذته آية ما إلى مكان آخر غير الحزب الذي هو فيه، أغمض عينيه بقوة وراحت شفتاه تتحركان بسرعة فائقة كأنها حوافرُ حصان مسرع لتبحث عن الطريق الذي حصل منه الانفلات، فلا تلبث الذاكرة أن تجد المسرب الملتبس من بين أغصان الشجر الكثيف والخلجان الغامقة المعترشة في صلصال اللوح المتأرجع بين المحو والكتابة. وقد أَلِفَ أهل الدوار أن يفرقوا بين الطالب العادي، أي حافظ القرآن كما يحفظه الناس جميعا، وبين الطالب الشَّقْشَاقِي، وهو الحافظ الذي يُشَقْشِقُ لسانه بالكتاب شقشقة لا فجوة فيها ولا بياض. وقد كان محمد بالنسبة لأهل بُومنْدَرَة من هذا الصنف الأخير بالتأكيد، لذلك فقد كانوا يتمنونه فقيها لمسجدهم الثاني الذي بنوه فوق الهضبة، وأصبح اسمه المتداول الجامع الفوقاني. أما الفقيه السِّي محند أوبنَّاصر فقد كان يتمنى لو يذهب محمد للقرويين، خصوصا بعدما حفظ الأجرومية وألفية ابن مالك ولامية الأفعال وعشرة أحزاب من الشيخ خليل وابن عاشر وابن عاصم وغيرها من المتون الأساسية.

لكن محمد كان قد ضاق بمحفوظاته وأصبح يحسها مثل أحجار ثقيلة داخل جوفه.

كانت القاعدة الذهبية للحفظ كما تلقاها من شيخه هي التعلم في الصغر كالنقش على الحجر، أما التعلم في الكبر فكالنقش على الماء. لكن النقش على الحجر كان يتطلب تكرارا قاسيا يجب أن يشبه في انتظامه ورتابته تدفق نبع ماء.

لذلك فقد كانت حياة محمد عبارة عن تعاقب ممل لذهاب وإياب بين بدايات نصوص ونهاياتها. كلما استظهر نصا كان عليه أن يعيد استظهاره مرة أخرى ومرات أخرى في عِرَاكٍ قاس وغير متكافئ مع سلطة النسيان. يفعل ذلك بعد صلاة الفجر، وبعد صلاة العصر، وعندما يضع رأسه على الوسادة يمرر يده على صدره كأنه يتحسس تلك الكنوز المدفونة في تلافيفه، ويعمد إلى النص الذي لم يكرره منذ فترة، فيركب حصان شفتيه ويبدأ في لهب المسافات الشاسعة، كلام لا يفهم منه شيئا، حتى يصل النهاية فيحس بتعب المسافر الذي يصل، فيتشهد وينام سعيدا. أما إذا تَلَكَّأَ الحصان عند كلمة ولم يعد العَدْو ممكنا فإنه يقف من رقدته مذعورا ويستخرج من "صندوق العلم" مجموع المتون، ولا ينام تلك الليلة حتى يعود للتجول في حديقة ذلك النص طليقا لا يوقفه شيء.

في الأماسي الضجرة، أي في تلك الساعة التي تعقب ما بعد العصر ولا يعرف الناس ما يفعلون فيها بوقتهم، كان محمد يستمع للفرسيوي، ويسبح في الفضاء الفسيح لأحاجيه. يفعل ذلك بلذة الطفل الذي كانه قبل سنوات. وكانت هموشة تعلق على ذلك بأن الطفل الذي لا يرضع من أمه يظل طفلا حتى يموت، وتقطع حبل الأحجية باسترجاع تفاصيل تلك الولادة العسيرة: كنا نغسلها أوليدي والحليب ينزل من ثدييها

الكبيرين مثل المطر، ولم نكمل تكفينها حتى صارت مبتلة بحليبها من الرأس للقدم.. أحَّيْ آنَا، يتنحنح الفرسيوي ويعود لأحجيته، بينما تمضي هموشة إلى ذكرياتها، فتذكر كيف هرعت يامنة فملأت إناء من حليب المرحومة، وسقته الوليد النَّهِم الذي لم يفتح عينيه ولا شفتيه بعد ذلك لمدة أسبوع كامل. ثم تذكر كيف كان محمد لا يُسكِت بكاءه الزاعق القوي شيء، لا السّكَّر ولا البيضة المسلوقة في إبريق القهوة، ولا الركوب على ظهر هموشة. كان لا يسكت إلا إذا وضعته بين يدي الفرسيوي وراح هذا الأخير يروي أحاجيه الشيطانية التي تأخذ عقلها فتنام قبل الصبي.

عندما حفظ محمد مجموع المتون جرى ذكر القرويين ومجالس العلم فانقبض صدره. كاننت صورة السعادة الأبدية قد رسخت في ذهنه على هيأة رجل من رجال الأحاجي، فلا هيبة الفقيه كانت تغريه، ولا وضاءة الرجال الصالحين، ولا وجاهة الأغنياء الفاسيين الذين كانوا يزورون شيخه مضمخين بالعود وماء الزهر. كانت الهيأة الأقرب إلى قلبه هي تلك التي تشبه هيأة السندباد أو حْدِّيدَّان الحرامي، أو بهلول: هيأة رجل يأكل كيفما يشاء وحيث يشاء وينام حيث يجد نفسه، ويتبع المرأة التي يريد. هيأة رجل مثله تماما، وهو يأكل الآن قطع الإسفنج الساخنة، ويتبعها برشفات سخية من شَايه الحلو، على قارعة طريق آهلة بالزائرين والمجاذيب وأهل الله، ذات فجر من أسبوع عيد المولد النبوي الموافق لأول ليلة ينام فيها محمد في قلب أحجية دافئة.

VIII

لم تتزوج يامنة أبدا. كانت في عهدها المرأة الأكثر إثارة وغموضا وسلطة في الدوار. لكن لها قصة خطوبة مشهورة ما زال الناس يتداولونها حتى الآن.

خطبها في بداية الثلاثينات شاب وسيم ووجيه من فاس. زار بومندرة صحبة والده فرآها وقد حملت كنبورة الماء الثقيلة على ظهرها وراحت تصعد بها من العين الواقعة في سفح المرتفع وهي تتكلم بصوت عال وصاف لا أثر فيه للجهد.

وهي أيضا رأته واقفا على صخرة الجماعة بجلبابه الأبيض وطربوشه الأحمر، فاستوت في وقفتها وحَدَجَتْهُ بنظرة متحفزة، نظرة التهمت سواد عينيه وبياض بشرته ونعومته النبيلة التي تكشف بالكاد فحولة متخفية. اضطرب الشاب تحت نظرتها فابتسمت له.. لفت البنات عباءاتهن على وجوههن وضحكن ضحكات متقطعة حادة، أما هي فقد فعلت ما لم تفعله أية امرأة قبلها أو بعدها في الدوار: تقدمت من الشاب

بخطوات واثقة حتى أصبحت أنفاسه المعطرة المتلاحقة تصل إلى وجهها، وسألته إن كان يرغب في الزواج بها. احمر وجه الشاب وارتعشت ملامحه فضحكت يامنة. وقالت وهي تنحني لتعديل القلة المليئة على ظهرها:

. ما تخافش!

فتعالت القهقهات المتقطعة من جديد، وتشتت الموكب الصغير هربا من جرأة يامنة. أما هذه الأخيرة فقد قررت بينها وبين نفسها أن لا تتزوج أبدا إلا إذا كان العريس شابا ناعما من فاس. وعبثا كانت النساء تُلَوِّحْنَ لها بضعف رجال المدن. كانت تَرُدّ غاضبة بأنها لا تريد مثلهن حمارا يملأ أحشاءها بشيئه الضخم، فكن يضحكن من لسانها البذئ ويعلقن عليها بمزيد من البذاءة والضحك.

لكن هذا الزواج المؤمل لم يتم، رغم أن الشاب الفاسي خطب يامنة وقرأ الفاتحة مع أهلها. ظل الدوار ينتظر عودته من فاس للدخول بزوجته، لكنه لم يعد أبدا، فتحركت الألسنة متحدثة عن ثقاف أفسد زواج يامنة، ثقاف عمله الفقيه السِّي بنعيسى من دوار سيدي موسى، وكان قد عبر عن رغبته في الزواج من يامنة قبل ظهور الشاب.

لكن يامنة لم تتهم أحدا، ولم تتكلم في حياتها أبدا لا بندم ولا بحسرة ولا بمرارة عن ذلك الزواج الذي لم يتم، لكنها أصبحت بسبب ذلك امرأة حُرَّة تجلد بلسانها من تشاء وتكلم الرجال بما تشاء. وصارت من القوة والجرأة بحيث لم يعد ممكنا للدوار أن يحافظ على توازنه من دونها. فهي التي

تقصدها النساء للبوح بأسرارهن الزوجية، فكان ذلك يمكنها من إصلاح بعض الأعطاب المتعلقة بالحياة الجنسية لأهل الدوار، إذ لم تكن تخجل من إثارة الموضوع مع الرجال رأسا لرأس، فتطلب من أحدهم مثلا أن يمارس الجنس مع زوجته في وضع معين تكون زوجته قد تمنته على يامنة، أو تطلب من أحدهم تطويل مدة المباشرة، أو غسل فمه ومضغ ورقة النعناع قبل الإقدام على تقبيل زوجته. وكانت قد اكتسبت من كثرة الخوض في الموضوع خبرة كبيرة مكنتها من ابتكار سبل غريبة لتقوية الشهوة، وتضخيم الذكر، وتهييج فرج المرأة، وإبطاء الإنزال، وتسريع وصول المرأة، مثلما اكتسبت خبرات عملية أخرى في الولادة والتمريض ورعاية الأطفال. وكان تَسَارّهَا مع الرجال، وهي امرأة في غاية الإثارة والنضج الأنثوي، يلهب شهوتهم، ويجعلهم ينسون تفوقهم الذكوري، ويستسلمون لألاعيب الحب التي تنسجها يامنة بوساطاتها المُوَفَّقَة. ولا شك أن عالم الحب في الدوار قد عرف على يدها، هي التي لم تذق له طعما أبدا، تقدما خارقا جعل يامنة نفسها تقول ذات يوم لعروس جديدة بكت بين يديها كثيرا مشتكية من عنف عريسها وضخامة ذكره: سأجعله لك مثل حمامة بذكر حمار!

لكن الشيء الأكثر إثارة في حياة يامنة لم يكن له علاقة بهذا الموضوع. بل بالشِّعْر. اشتهرت يامنة بأهازيجها وأغانيها المرتجلة. إذ لا يوجد حدث، عرس، أو مأتم، فضيحة أو مكرمة، لم تسجلها يامنة في أشعارها. تفعل ذلك في الأفراح خاصة. تقرفص وسط النساء، وترفع الدف وتميله يسارا جهة

أذنها، وتبدأ في نظم مديحها أو هجائها، فخرها بأخوالها أو تعريضها بأعدائها، تبكي وتضحك، تفرح وتحزن، فلا تقوم من مقامها حتى تكون كلماتها قد أصبحت على كل لسان. في أفراح أخوالها، وكانوا فخرها وتيجان جبينها، كانت تقسم أن لا ترفع صوتها بالغناء حتى تسمع البارود، فيخرج الفقيه السِّي أحمد بن علال نفسه ويقف على السطح الطيني الأبيض ويبدأ البارود قبل كل زغرودة وبعدها ولا يتوقف عن ذلك حتى يرتفع صوت يامنة بالغناء.

ويامنة التي خلدت بأشعارها سيرة الولي الصالح مولاي أحمد الوكيلي، هي التي خلدت مقتل الخليفة "الحيمر" بقنبلة ألقتها المقاومة على مجلسه في سوق الزاوية ؛ هي التي فضحت بُخل ايزيدين وشهَّرت به ؛ هي التي رفعت سمعة أخوالها للسماء، ورثت موتاهم بأشعار رقيقة، وغنت بطولاتهم وعزتهم وعشقهم للبارود ؛ هي التي زوجت بنات لَسْنَ على حُسْنٍ كبير ببيت واحد فقط، وهي التي جعلت ولد حمو يهرب من الدوار ولا يرجع إليه أبدا لأنه تجرأ على خطبتها فصَيَّرته أضحوكة. كانت تتدفق بشكل مذهب، لا تكاد النساء يلتقطن أنفاسهن من الإعجاب ببيت ما حتى تصب عليهن برد بيت آخر، وقد سئلت في ذلك فقالت مغنية:

أرَبِّي إذَيي إيوْشِين أوَارْ اينُو إسَكَّذْ
أمَنْدْ غَا يْنيخْ ثْجَمَّاعْثْ أثِيرِي ثَنَّغْني ثَوْجَذْ
[ربي هو الذي أعطاني كلاما جميلا متدفقا
ما إن أنطق الكلمة حتى تكون الأخرى قد ولدت]

لكنها فجأة توقفت عن قول الشعر. حصل ذلك بعد وفاة خالها الأصغر. دخلت البيت الكبير صباحا قبيل خروج الجنازة، وجلست تعدد في أشعار تدمي القلب أسماء من ماتوا من أحبابها وتصف أحوالهم، وتحكي عن لحظات قوتهم، وضعفهم، وتخاطب أمكنتهم وأفراسهم الأثيرة، وبنادقهم المعلقة، والنساء اللواتي تمنين لو أقفلت عليهم هذه الدار، وتعاقب الموت الذي يختار تيجان الدر، ويترك القدور المفحمة، والفقيه السِّي عبد الله، يهدئ من روعها ويقول هذا الشي راه حرام أيامنة، الرجوع لله.

لكن يامنة لم تكن تسمع أحدا: كانت قد انفلتت من عقالها وأصبحت سيلاً عارما من الكلمات والأشجان، فذكرت كل ما وقع للدوار منذ مجيء الفرسيوي مرورا بسنوات الجوع، ومعركة واد الدشر التي قتل فيها أهل بومندرة عشرات الجنود الفرنسيين في ليلة واحدة، ثم عام التيفوس وما أكل من أرواح، وظهور المدرسة، والجوامع التي أصبحت خالية، ثم ظهور السروال الطويل، والفريزي والبرْيَانْطِين. ذكرت قصص الحب، وقصص التقاتل والثارات، أيام العز، وأيام المهانة، ثم وصلت إلى خراب المنازل، والجن الذي أصبح أكثر من الرنس، والأحجار التي تراكمت حول الموائد والأسِرَّة، فخلصت إلى التسليم بقضاء الله الذي كتب البدايات والنهايات بنفس المداد. ظلت تقول وتعدد ثلاثة أيام بلياليها، فلم يبق أحد في الدوار إلا بكى وضحك، لان وقسا، حزن وفرح.

وعندما سكتت فجر اليوم الثالث نام الناس لما بعد عصر

ذلك اليوم، أما هي فقد زمت شفتيها فأصبحت لا تفتحهما إلا للتسبيح أو للتحية. وصارت تصوم الأيام كلها إلا أيام الجمعة والأعياد، ولم تعد تأكل شيئا عند إفطارها سوى خبز الشعير واللبن، أو التين الجاف إذا وجد. ولا تفتر عن ذكر الله.

وفي تلك السنة التي توفي فيها سلام الفرسيوي، جاءت امرأة من دوار سيدي موسى تبحث عن يامنة، فلما التقتها ذكرت أنها مبعوثة من الفقيه السِّي بنعيسى الذي يحتضر، وهو يطلب منها المسامحة لأنه هو الذي كتب لها الثقاف: كان يريد الزواج منها فلم يطق أن يأخذها أحد غيره. والثقاف موجود في جذع الزيتونة البرية قرب عين تصبابت. ظلت يامنة تحرك شفتيها بالتسبيح وهي تنصت للمرأة، وعندما أنهت هذه الأخيرة رسالتها طلبت من يامنة أن تقول هل تسامح الرجل أم لا حتى تخبره بذلك قبل خروج الروح، فحركت يامنة رأسها رافضة وفاضت عيناها.

بعد ذلك ببضعة أيام طلبت يامنة من هموشة أن تبعث للفقيه السِّي محند أوبنَّاصر لِيُعَزم عليها. جاء الفقيه فأشارت يامنة له بالدنو وأبعدت هموشة بحركة من يدها.

خلال ساعات ظل الفقيه ينصت لأسئلتها: كانت تريد أن تعرف ما الذي سيلحقها من عذاب على بذاءة لسانها، وعلى الأشعار التي نظمتها، وعلى النصائح الجنسية التي ابتكرت، فكان الفقيه يردد أن الله لا يغفر أن يشرك به، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء من عباده. لكن يامنة كانت تقول هيهات وتبكي، فيقول الفقيه إنها ستلاقي ربها عذراء لم تعرف

الفاحشة أبدا، وأنها ستأخذ من حسنات الذي كان سببا في عدم زواجها، وهو سيأخذ من سيئاتها، وأنها صامت الدهر فعملت بعمل أهل الجنة، فكان ذلك يهدئ من روعها قليلا، ويجعلها تبتسم ابتسامة خفيفة. ثم بدأت أنفاسها تتلاحق بقوة، فخمن الفقيه أنها في النزع الأخير فاستعاذ بالله من الشيطان الرجيم وقرأ سورة يس حتى نهايتها. عند ذلك تذكر العشرين جلدة بقضيب السفرجل التي ألحقها بيامنة، فانحنى عليها وطلب منها المسامحة دون أن يذكر الموضوع، لكن يامنة ابتسمت، وسألت الفقيه عما إذا كان لا يزال يستعمل قضبان السفرجل، فغلبه التأثر حتى دمعت عيناه. قالت يامنة: الله يسامح في الدنيا والآخرة. وبعد فترة صمت قصيرة أعادت الحكاية على الفقيه من خلال أنفاسها المتقطعة فذكرت قصَّة فاطمة مع العطار وذكرت كيف ولد المبروك مقطبا وكيف أشاح بوجهه عن أمه ورفض أن يلتقم ثديها، وكيف رأت بعينها قطعة متهدلة تنزل تحت سرته تقول علك العطار الوردي، وهي ليست سوى قطعة من جسده. كان الفقيه يقاطعها: غفر الله للجميع، غفر الله للجميع، لكن يامنة لم تتوقف حتى أكملت حكايتها.

وعندما أحس الفقيه بخفوت أنفاسها استعاذ بالله من الشيطان الرجيم وقرأ سورة الملك حتى أتمها. كان يراقب حركة جسدها فرأى شاهد يدها الأيمن يتحرك كما لو كان يداعب حبات السبحة، ورأى شفتيها تتحركان ببطء بتسبيحها الصامت، فانحنى على أذنها وشهد ثلاث مرات متتابعة.

وعندما رفع رأسه كان جسد يامنة البالغة من العمر ثمانية وتسعين سنة قد تقلص حتى أصبح في حجم طفلة، وكانت تجاعيد وجهها قد اختفت تماما وحلت محلها نضارة طفولية طافحة. كَبَّر الفقيه عدة مرات وأخذته نشوة من تفتقت لهم الأسرار، وأشرقت لهم الأنوار، ثم هزته شهقات طالعة من أعماق روحه، فقرأ سورة الإخلاص سبع مرات، ونادى على هموشة وطلب منها أن تقفل على جثمان يامنة وتحفظ سِرَّ رَبِّنا. وعندما حضر المغسل، همت بعض النساء بدخول الغرفة للمشاركة في غسل المرحومة. لكن الفقيه منعهن بحركة من يده، وكلف هموشة بغسلها. فقامت بذلك وحيدة وغسلت جسد طفلة في العاشرة: حلت الضفائر التي تعرفها بيضاء ناصعة فوجدتها في سواد الفحم، وأدخلت أصبعها في فم تعرفه بلا سنة واحدة فوجدته منضدا بأسنان ناصعة، وسكبت الماء على صدرها فلمست نهدين صغيرين لم يكتملا بعد، وقلَّبَت الجثمان يمينا ويسارا حتى فرغت من الغسل، واستلمت الكفن من باب نصف مفتوح فلبست البنت وعيناها لا تكفان عن البكاء، وكانت شفتا يامنة حتى تلك اللحظة ما زالتا تتحركان بتسبيحها الصامت، وتشهدها يعبث بحبات سبحة مفترضة.

ولكن أحدا في القرية ولا غيرها لم يعرف من أمر هذه المكرمات شيئا!

IX

اشتغل محمد الفرسيوي ليكسب قوت يومه في أعمال كثيرة، بعضها غادره من ضجر، وبعضها من عذاب، وبعضها رغم أنفه. اشتغل في فرن قرب ضريح الهادي بنعيسى، فكان يقضي يومه متنقلا بين دور المدينة القديمة وفرنها حاملا على رأسه لوحات الخبز الثقيلة، وينام في المخزن المجاور للفرن. ثم اشتغل بالمدينة الجديدة بوابا في عمارة يسكنها الفرنسيون، ومنهم تعلم بعض كلمات لا زال يرددها على أهل الدوار حتى الآن.

اشتغل حمَّالا، وطبَّاخا، وكسَّالاً في الحمام، وبائعا متجولا، وفتح دكانا صغيرا بقبة السوق صار يكتب فيه التمائم ويضرب فيه "المحَلَّة". وخلال ذلك اشتغل سمسارا، ثم بدا له أن يملأ أوقات انتظار الزبائن بحرفة فبدأ يخيط الجلاليب والبرانس، ويصلح الساعات، وجمع من ذلك كله بعض النقود فأغدقها على الدوار وأهله.

لكن الشيء الأكثر انتظاما في حياته كان تردده على "الحلقات" في ساحة الهديم، وباب الجديد، كل يوم بعد صلاة العصر. كان يقضي هناك ساعات ينصت فيها لحكايات من ألف ليلة وليلة، والسيرة الهلالية، وسيف بن ذي يزن. يقف في حلقة ثم ينتقل إلى أخرى حتى حفظ كل الحكايات، فلم يعد يذهب لسماعها بل للتفرج على الأثر الذي تحدثه في الحاضرين. ونشأت بينه وبين الحلايقية ألفة وصداقة، فصار يذهب مع بعضهم لصلاة المغرب ثم يأخذهم لبيته الصغير بقاع وردة ويطبخ لهم كفتة الجمل التي لا يتقنها أحد مثله.

خلال الشهور الأولى التي تلت الليلة التي قضاها بالضريح ظل مشدودا لصورة المرأة التي ظهرت في بهاء الحضرة، ثم في التباس الفجر وغابت، تاركة في أعماقه جمرة صغيرة وضاءة، ثم رأى بعد ذلك كثيرا من النساء في شوارع المدينة وأسواقها، ورأى فرنسيات متبرجات كان يحاذر أن يركب جنبهن في الحافلات، لأن مجرد لمسهن صدفة كان يجعله يقذف في سرواله. فنسي المرأة قليلا، إلى أن ذهب ذات فجر إلى ضريح سيدي قدور العلمي حيث جذب جذبة كبيرة وبكى بكاء حارا ونزلت على قلبه السكينة، فخرج مع تباشير الصبح إلى أزقة المدينة يمشي بين حوانيتها المغلقة، وقد امتلأ قلبه بصفاء جلي كأن بحيرة صغيرة زرقاء قد استقرت في أعماقه.

عندما وصل إلى التوتة وهمَّ بالالتفات يسارا للخروج من باب كناوة، لمح جسما ملفوفا في الحايك الأبيض يتحرك

باتجاهه. أوقفته الدهشة فلبث مصعوقا حتى مرت المرأة بمحاذاته فانهمر صوتها هامسا: صباح الخير ألفقيه، ثم لم يرها بعد ذلك ببضعة شهور إلا في أحلامه واستيهاماته.

كل هذه النتف المبعثرة من حياته المبعثرة مرت بخلده وهو يجلس جلسته الأولى في حلقته بساحة الهديم واضعا كتاب سيرة أبي زيد الهلالي على جلد الخروف الناعم. كان يشعر بالدم والحرارة يغمران وجهه ورأسه الأقرع، ولم يكن يعرف من أين يبدأ. ارتج عليه كما حصل له أول مرة دخل فيها المحراب لصلاة التراويح. تزاحمت الكلمات والأسماء في ذهنه، وصلى على النبي مرات ومرات. نظم صفوف الحلقة وشتتها ثم أعاد ترتيبها، كان لا يبدأ بينه وبين نفسه في تحديد الحكاية التي سيرويها حتى تختفي الكلمات ويحل محلها بياض فارغ. بدأت تتعَالى أصوات من الحلقة تطالب بحكايات مختلفة من ألف ليلة وليلة، فزاد اضطرابه بسبب ذلك، لكنه في لحظة من لحظات ضيقه، وكان الناس قد بدأوا ينفضون من حوله، أخذ يروي حكاية قمر الزمان وما جرى له مع ولديه الأمجد والأسعد، فالتأم شمل حلقته من جديد. ومع ذلك لم يمض سوى شوط قصير حتى اختلطت عليه الأسماء والأحداث فأفلت خيط الحكاية، وزاد في بلبلته أنه كان يحاول تقليد حركات الحلايقية فجعله ذلك يبدو مضحكا. وعندما قرر التوقف لجمع تبرعات الحاضرين كان الناس قد انصرفوا، ولم يبق سوى شتات هزيل مر على أفراده مادا طربوشه لالتقاط ما يجودون به. وكان في عَرَقِه وشعوره بالعجز والفشل يتمنى لو

تطير به ريح عاتية وتذهب به إلى صحراء بعيدة، فإذا بيَد ناعمة بيضاء تمتد من صوف الحايك وتلقي قطعة براقة في الطريوش. رفع محمد بصره فرأى عينيها السوداوين الواسعتين، ورأى فيهما ضحكة شيطانية فابتسم لها.

وفي اليوم التالي عندما تحلق حوله الناس وصاح الأطفال ها لقرع جا، ها لقرع جا، ها لقرع جا، لم يقوموا بذلك احتفاء بحكاء بارع، بل لطرافة هذا الرجل الطويل الأقرع الذي يتقافز في مكانه، ويسرد الحكاية بجسد يتمايل كما في قراءة الحزب، والذي ما يزال ينطق العامية بلكنته الريفية النفاذة، لكن محمد الفرسيوي لم يضع وقتا طويلا. جال ببصره في الحلقة، فرأى المرأة وعينها الضاحكتين. فصلى على النبي ثم تدفق مغمض العينين، والحلقة تكبر وتكبر حتى صار أولها بباب منصور العلج وآخرها بمدخل السكاكين، وصار صوته واصلا عنان السماء.

كان حتى كان، رجل من بني توزين، هرب أولاد أخيه من الريف إلى دوار بومندرة بزرهون، هربا من الثأر والمجاعة، وهناك تزوج امرأة تدعى هموشة لا تشبع من النكاح ولكنها لا تلد، ولو كانت تلد لودت من شدة نكاحها مدينة كاملة.

وذات ليلة ذهب الرجل، واسمه الفرسيوي، مع هموشة يطلب الأولاد في ضريح الهادي بنعيسى، فرأى يا إخوان امرأة في حضرة عيساوة تطلق من عينيها السهام. هَامَ الفرسيوي وثقلت قدماه وظل في الضريح سبعة أشهر، لا يأكل ولا

يشرب ولا يتكلم، حتى صار كالخيال. فوقف عليه الشيخ في المنام، وقال ترجع إلى بومندرة، وتذبح بعد صلاة العشاء فروجا أسودَ ليس فيه إمارة وتفرق دمه على سبعة قبور، وعند القبر السابع تنزع قشابتك. وتظل عاريا كما ولدتك أمك حتى تشرق عليك الشمس. وعند ذلك يكون ما يكون.

رجع الفرسيوي وفعل ما أمره الشيخ، وعندما سطعت الشمس أغمض عينيه فأحس بنفسه يطير. وفتحهما فرأى الظلام ما يزال يلف الكون. كيف يا ربي تشرق الشمس وتغرب في رمشة عين لله! سأل الفرسيوي نفسه، لكن صوتا أجابه: أنا الشمس التي أشرقت عليك. فتح عينيه فوجد نفسه في واد أخضر تجري فيه الغدران، وتغرد الطيور على الأفنان، ومعه امرأة لها سوالف تغطي جسدها كله إلا وجهها المشرق كالشمس الساطعة. قال الفرسيوي: أشْ تْكُونِي، جِنّ وْلاَّ إنْس لله قالت سوالف أنا الجن الذي يصبح إنسا والإنسان الذي يصبح جنا. شَهَّد الفرسيوي وقرأ آية الكرسي لكن سوالف كان تقرأها معه بصوت رخيم تبكي له الأحجار وترتعش الأشجار، حتى فرغا منها، فقامت إليه وقالت له عليك الأمان، أنا مؤمنة وأريدك على سنة الله ورسوله، تتزوجني فأكون لك كل النساء اللواتي تشتهي، آخذ هيأتهن وأجيئك في الحلة التي تريدها منهن وفي السن والطبع وما تشتهيه منهن حلالاً طيبا، لكن هناك شيئا إن تفعله فستشتعل النار في جسدي وروحي، فترجع إلى حياتك السابقة أو تأكلك النار معي. قال الفرسيوي: وما هو هذا الشيء لله قالت: لا يعلمه إلا الله.

وذهبت سوالف بالفرسيوي إلى عين مثلجة فغسلته وسقته ونقَّتْ جسده من الندوب والجروح القديمة ومرَّرت يدها على ذكره فصار مثل ذراع، وجنت له فواكه غريبة ما إن أكلها حتى استعاد قوته، ثم قالت له أغمض عينيك وقالت افتحهما، فإذا هو في قصر بهيج تحيط به سواري الرخام، وأسرة الحرير، وتترقرق فيه نوافير من ماء ملون وغير ملون. وإذا بمجلس حافل لرجال ملثمين. قالت سوالف سلم واجلس، ولا تتكلم حتى يطلب منك ذلك. وجاء القاضي فسأل الفرسيوي عن اسمه ونسبه، وعما إذا كان موافقا على الزواج من سوالف. فأجاب بقلب ثابت على كل ذلك، وقبل الزواج فقرأ الحاضرون الفاتحة.

عند ذلك طلبت سوالف من الفرسيوي أن يغمض عينيه، ثم طلبت منه أن يفتحهما فإذا هو في بلاد يعرفها ولا يعرفها، واستدار حوله فلم يجد لسوالف أثرا، وعندما سأل قيل له هذه هي الناضور، وهذه الطريق التي عن يمينك تؤدي إلى عزيب مضار. هكذا يا إخوان وجد الفرسيوي نفسه في الريف مرة أخرى فجال في دواويره ومساجده وزواياه، ووقف على البحر ونادى سوالف بأعلى صوته فلم تجب.

وبقي حائرا يعمل في حرف كثيرة ليكسب قوته. عمل في فرن ثم في مطحنة ثم اشتغل بوابا وبائعا متجولا، وفتح دكانا صار يكتب فيه التمائم للصبيان، ويجلب القلوب للرجال ويفسخ الثقاف، ويخرج الجن من أجساد البشر. حتى كان ذات يوم يا إخوان فإذا بالمرأة التي رآها في حضرة عيساوة تقف

عليه في دكانه وتقول "بغيت حجاب الفقيه". رفع الفرسيوي بصره نحوها فأرسلت إليه سهام عينيها وأسدلت اللثام فإذا هي سوالف.

صار الفرسيوي منذ ظهور سوالف مرة أخرى مثل حصان جامح لا يقدر عليه إنس ولا جان. وصارت الجنية تأخذ له هيأة المرأة التي يشتهيها فينام معها ليلة كاملة وهو يقلب عليها في أنواع النكاح حتى يأذن الله بالصبح. فلم يترك امرأة في الريف ولا بومندرة. لم يترك امرأة يعرفها، ولا امرأة مرت في الطريق فاستهوته إلا أحضرتها سوالف على صورتها وطبعها وكلامها وحركاتها وسكناتها.

ووسوس الشيطان للفرسيوي فصار يطلب من سوالف العجب العجاب، وهي تقول له أنا بالله والشرع معك، ستسقط ذات يوم في المحظور. ولكن الفرسيوي كان لا يقف عند حد، فاستحضر نساء عائلته، وأخوات هموشة ونساء معارفه ونساء أولاد أخيه، وخالة له ماتت في الريف قبل الهجرة، ثم صار يشتهي غلمانا في السوق فيستحضرهم بسوالف، ويفعل معهم العجائب، حتى كان ذات يوم، يا حضار يا كرام، فطلب من سوالف أن تأخذ هيأته هو نفسه ولكن بجسد أنثى. ضحكت سوالف وقالت كيف أدخل الشيطان هذه الفكرة في مُخك! ومن سيكون الرجل عند ذلك لله

ولكن الفرسيوي الذي واقع تلك الليلة امرأة من الزغنغن رآها في السوق، لم يتراجع عن طلبه، فقد كان كلما تذكر

تلك المرأة وما حصل لها من لذة جعلتها تبكي وتضحك وتزغرد وتلطم نفسها إلا أحس أن لا شيء سيطفئ شهوته إلا أن يكون امرأة.

وكذلك كان. جاءت سوالف امرأة على هيأة الفرسيوي واشتهت المرأة الفرسيوي نفسه، فانبرى لها وقد أخرجته الشهوة عن أحواله فأرغد وأزبد، وضرب بقدميه الأرض كالثور الهائج، ثم أقبل على الفرسيوي وهو امرأة تترنح متأوهة وقد انتفخ فرجها وبرزت تلافيفه البليلة، لا حياء في الدين، فما إن لمس لحمها لحمه حتى اشتعلت نار عظيمة وهبت ريح عاتية، أحس الفرسيوي بنفسه مأخوذا في زوبعتها، وما هي إلا رمشة عين حتى وجد نفسه في ظلام دامس، فتح فيه عينيه جيدا فلم ير إلا أشباح أشجار غامقة. ثم اقتحمت خياشمه رائحة مكان أليف سرعان ما أدرك أنه بومندرة، وأن الله قد نجاه فلم يحترق مع سوالف، فتسلل عبر المقابر الموحشة حتى نزل إلى حقل الشعير ثم عبر منه جنان الزيتون، ثم إلى جنان الجامع ثم إلى الدار التي ما زالت نائمة هادئة.

وعندما دخل بين ساقي هموشة فجر ذلك اليوم صدرت منها وَحْوَحَةٌ عاصفة سرت في جسد الدوار كله فلم يبق فيه ذكر من الإنس والجن والدواب لم يعتل أنثاه ولم يأت بالعجب العجاب.

وكان قد مر على زواج الفرسيوي من سوالف زهاء خمس سنوات، أرَّخ الناس نهايته بتلك السنة التي سموها عام

الولادة، لأن الدار الواحدة يا سادة يا حضار ولدت في تلك السنة مثل هذه الحلقة وأكثر.

ونزع طربوشه، فصار لا يتقدم بضعة أشبار حتى يمتلئ عن آخره بقطع النقود البراقة، فيفرغه تحت الهيدورة، ويعود لإكمال دورته وسط الصلاة على النبي.

X

لم يحضر محمد الفرسيوي جنازة يامنة، فقد سافر أياماً قليلة بعد عيد الفطر، وبعد حضور جنازة سلام وزوجته كنزة، نزل من الحافلة في ساحة الهديم وجال ببصره في المكان الذي لم تعد به حلقات ولا مجاذيب ولا مغامرون فانقبض قلبه، وقال لنفسه إن الأمور كانت ستكون أقل سوء لو كان لكل واحد مكان يولد معه ويموت معه، ثم بدت له الفكرة غامضة فلم يلح. اتجه صوب حافلات مراكش وقد دفعه اكتئاب مفاجئ إلى التبرم بنفسه، وتأنيبها معتبرا نفسه مسؤولا عن المرارة التي أودت بحياة سلام، ولكنه عاد بعد قليل وقد استقر في مقعده بالحافلة المتجهة نحو مراكش إلى الترويح عن نفسه، مستحضرا كل عذاباته الصغيرة وحاجته للتخفيف من وطأتها.

وعندئذ أحس بالسكينة مرة أخرى وهو يتلمس الحجاب الذي وضعه في جيب قشابته جهة صدره، حجاب الفقيه السِّي

محند أوبنَّاصر، لعله يضع حدا لتيهه ويفك إساره، ويعيد السكينة الأبدية إلى قلبه. شخص ببصره إلى الطريق المخضرة فامتلأت عيناه بدمع سخي. كان الطريق يملؤه دائما بحزن دافق إذ تلوح في خاطره هواجس فيرى نفسه جثة هامدة في حلقة فارغة، أو في قفر من القفار التي يأخذه إليها تيهه وشوقه، نقطة صغيرة ضائعة في بحر متلاطم من المجهول. وكان ذلك يجعله يتوجه لخالقه بالدعاء أن لا يموت في أي مكان آخر سوى في بومنْدَرَة لأنه أحق من غيره من الأمكنة برفاته، هي التي رأى فيها النور وحفظ فيها القرآن والمتون وجلس فيها إلى الفرسيوي مستمعا لأحاجيه العجيبة. اتجهت أفكاره مرة أخرى صوب الدوار، فاستعرض أهله واحدا واحدا، وتساءل من سيموت خلال غيابه، وكيف سيَموت. فكر في هموشة، ويامنة، ومحند العكيوي، والمبروك، وخلص إلى التسليم بأن الأمر لا علاقة له بالسن ولا بالصحة والمرض، بل فقط بالأجل الذي سبق في علم الله متذكرا أن الناس في بومندرة لم يعودوا يموتون مرضا، بل ينطفئون، كأن تعبا كاسحا يأخذهم في زوبعته السرية.

وفعلا، ماتت يامنة شهرا بعد سفره، وفي شهر رجب، أي بضعة أسابيع قبل عودته، مات محند العكيوي. وجده أخوه مزيان في عين تصبابت ذات فجر عاريا مغتسلا وقد استلقى على ظهره ووضع يده على عورته. وكانت هذه هي الحالة التي رأته عليها حادة أوعكي، أم مزيان وزوجة أبي محند العكيوي، في منامها تلك الليلة دون زيادة ولا نقصان. كانت تشطب

الدار عندما تذكرت حلمها، فهرعت نحو غرفة محند لتجد فراشه فارغا، ثم أيقظت مزيان وطلبت منه أن يتبع أخاه فورا إلى عين تصبابت.

كان العكيوي قد احتد تلك الليلة في مجادَلة حمادي بن شعيب وأحمد ولد محند سلام، لأنهما خاضا معه في أمر زواجه الغامض من امرأة من بني مرعاز لم تمكث عنده سوى ثلاثة أيام، وهو موضوع يكرهه مُحَند العكيوي، ويعتبر الخوض فيه طريقة للسخرية منه. أما رجال الدوار فيعتبرون هذا الموضوع المحرم مادة خصبة للضحك، لأن غضب محند يدفعه للصراخ بشتائم لا يعرفها أحد سواه، ثم يجعله يرفع جلبابه مظهرا ذكرا ضخما منفراً يدفع به في اتجاه الشخص الأكثر عبثا به وهو يصرخ: هَامَا مَّاشْ هَامَا مَّاشْ!

لكن الناس فعلا لم يكونوا يفهمون كيف تكون للعكيوي كل تلك القوة الواضحة، بينما لم يخض في حياته سوى تجربة زواج فاشلة، انتهت برجوع عروسه إلى أهلها بكرا. وكانت حادة أوعكي زوجة أبيه تحكي للنساء عن ثقاف وضعه فقيه من سوس في الصبا المبكر لمحند. كان ذلك عندما اختطفه من ضريح مولاي ادريس وذهب به لاستخراج كنز في فاس.

والحقيقة أن الحكاية التي لا يحب العودة إليها كثيرا وقعت قبل أكثر من سبعين سنة. يومَها لم يكن قد بلغ سن السادسة عشرة. وكان معروفا بيده الزّهْرِيَّة التي لا تظهر "المحلة" إلا في مثلها. ويبدو أن فقيه سوس قد أرشِد من قبل العفاريت القائمين على الكنز إلى محند الذي اعتُبِرَ مفتاحا لا

غنى عنه، فجاء إلى الزاوية التي بعثت إليها الأقدار بمحند العكيوي زائرا لضريح مولاي ادريس، وهناك تَمَّ اختطافه. كان ذلك فجرا، وضعوا عمامة حول فمه شدّوا بها وثاقه، فكانوا إذا مروا بجماعة طلبوا منها مساعدتهم على إحكام السيطرة على الفتى المريض الذي أشار الفقيه بأخذه لمولاي يعقوب، فيتطوع الناس لإرجاع محند المنتفض بقوة إلى ظهر البغلة ويرفعون أصواتهم بالتكبير والصلاة على النبي وذكر فضائل حامَّة مولاي يعقوب!

وقد سافروا به يوما كاملا، وعند الغروب نزلوا قرب وادي سبو في منخفض موحش، وهناك جرح الفقيه راحة محند العكيوي وامتص منها دما بصقه على أمكنة مختلفة، ثم كتب بالصمغ شيئا في قعر إناء فخار، محاه بقليل من الماء، وطلب من محند أن يغسل ذكره بالمحلول. فعل ذلك لأنه رأى الصبي قويا يافعا، فخاف أن تتحرك نفسه، بينما يتطلب استخراج الكنز ألاَّ تدور الشهوة بالصبي مطلقا.

حفر الفقيه ومساعدوه حفرة واسعة في المنخفض الذي أحاطوه ببعض نقط الدم المستخرجة من راحة محند العكيوي. ويقول محند، ولو أنه لا يحب كثيرا العودة لهذه الحكاية، إن دخانا كثيفا انبعث من الحفرة، ثم هبت ألسنة من النار، ثم ثعبان ضخم له ضفائر بيضاء طويلة، فرأى الفقيه يمد يده، مع ذلك، في الحفرة ويستخرج قدرا كبيرة رأى ضوءا نافذا يبرق من فوهتها، ثم هبت ريح عاتية فلم يحس بشيء بعد ذلك حتى وجد نفسه قرب حمارة في حقل مخضر لم يَطأه أبدا، وعندما

سأل الرعاة عن المكان أخبروه أنه الريف، الريف الذي ظل فيه تسع سنوات قبل أن يعود إلى بومندرة. وقد مات فقيه سوس قبل أن يحل الثقاف المؤقت فظل محند العكيوي ينعظ في كل وقت إلا عندما يكون بين ساقي امرأة.

كان محند العكيوي يحتفظ من حياته بموضوع واحد لا يحب الخوض في غيره، هو موضوع معركة واد الدشر ضد جنود الاحتلال الفرنسي. فكان لا يغضب لشيء مثل غضبه من الذين يخرجون به عن هذا الموضوع، ويعرجون على قضية الزواج لمجرد التسلية والعبث. فكان ينتهي به خَنَقُهُ، كما في تلك الليلة، إلى الترحم على الرجال وزمنهم، فيضطر الآخرون إلى العودة لموضوعه الأثير ليس لمجرد إرضائه، بل أيضا لأن ذكر تلك البطولات البعيدة يملأ أنفسهم بالاعتزاز، ويجعلهم يحسون بالتفوق على الدشور الأخرى مثل بني مرعاز تحديدا التي وصلتها الطريق المعبدة والمدرسة وأصبحت مثل مدينة تغلي بالسكان.

حدثت معركة واد الدشر بدون مناسبة تقريبا.

فقد جاءت فرقة من الجيش الفرنسي ووضعت معسكرها في المرتفع المطل على واد الدشر وبالضبط تحت خروبة الوزيعة، وهي التي كان أهل الدوار يذبحون على صخرتها الضخمة ذبائحهم ويوزعونها بينهم بعد أن يضعوا كميات اللحم فوق شقائق الصبار، ويضربون قرعة لتوزيعها.

ومن ذلك المرتفع كان الجنود يسيطرون على الوادي سيطرة كاملة، ينزل بعضهم إليه لجلب الماء، وللاستحمام عراة

أمام دهشة الأطفال المحملقين من الضفة الأخرى. وقد بعث الدوار مندوبا عنهم لقائد المجموعة ليفهمه أن الواد به عين تسقي منها النساء، وأن المرتفع به خروبة الوزيعة التي يحتاجها الدوار للذبيحة، وأن المكان غير ملائم للمعسكر لأنه يطل على أعراضنا أسيذي اينو!

لكن القائد الذي وجد اللكنة مضحكة مدَّ يده وأمسك أذن الرسول، التي لم تكن سوى أذن محند العكيوي، فصبر هذا الأخير على الأمر ورجع مكسورا للدوار. وفي بيت الفقيه السِّي عبد الله اتفق الرجال على إبادة المعسكر. جمعوا ذخيرتهم وبنادقهم، وقضوا الليل كله يقطعون حلي نسائهم الفضية ويصنعون منها الذخيرة، وقبيل صلاة الفجر أحاطوا بالمعسكر وقتلوا كل من فيه.

يقول محند العكيوي أن القائد صعد إلى الخروبة وظل هناك حتى فضحته الشمس فأنزله العكيوي بنفسه وقطع أذنيه معا قبل أن يذبحه من الوريد إلى الوردي.

لكن الدوار لا يتذكر كل ما مر في ذلك اليوم الطويل كبطولة فقط، بل أيضاً كمحنة لا تُنسى. فقد ظل النساء والأطفال وحدهم ببومندرة. خلال خمس سنوات حرثت النساء الأرض وحصدن ودرسن حتى تشققت أقدامهن وأيديهن وضمرت صدورهن، قبل أن يعود الرجال من مخابئهم في الريف وأزمور وبني وراين والشراردة والحوز.

وحده الفقيه السِّي عبد الله ظل في الدوار. أخذه الفرنسيون سنة كاملة ثم أرجعوه فظل ساهرا على أعراض

البلدة وأرزاقها حتى عاد الرجال، عادوا متفرقين فأغمضت الحماية الفرنسية أعينها على الموضوع.

قضى العكيوي تلك السنوات البعيدة في الحوز، حصَّادا لا يشق له غبار، وكم كانت الحوزيات يعبثن به ويخبطن على ظهره القوي، لكنه كان مصمما بينه وبين نفسه على الزواج في بومندرة، حتى كان ما كان، وهنا يتدخل الحاضرون لذكر ذلك الزواج المنحوس ورجوع العروسة بكرا إلى أهلها، ويذهب الحماس بحمادي بن شعيب إلى حد التهكم بالعكيوي قائلا: وماذا نقضي بالبارود والرّجْلة وبَالَكْ حَيَّد إذا كنا لا نستطيع أن نثقب امرأة لله وهذا ما حصل بالضبط تلك الليلة، فرفع العكيوي قشابته مرة أخرى وضب شتائمه وغادر صخرة الجماعة حانقا. لكن أحدا لم يخمن أن تلك كانت غضبته الأخيرة.

أثناء الجنازة بكى الفقيه السِّي محند أوبنَّاصر كما لم يبك أبدا قبل ذلك. فدهش الموكب الصغير لهذا الأمر، خصوصا وأن الجميع كان يعرف الخصومة الكبيرة التي كانت بين الفقيه والمرحوم بسبب عزوف هذا الأخير عن الصلاة. وكأنما أحس الفقيه بدهشتهم فراح بعد الفراغ من الدفن يحدثهم بما كان يقوله الفقيه السِّي عبد الله، الله يرحمه، عن العكيوي. فقد كان يحكي عن معركة واد الدشر أنه لولا العكيوي لما كان ما كان. فقد قتل وحده أزيد من خمسين نفرا، وعندما نفذت الذخيرة اقتحم المعسكر بمديته القصيرة وراح يذبح بها ويطعن حتى صار في بركة من الدم. ثم كان الفقيه رحمه الله يروي أنه رأى مناما رجلا مهيبا مشرقا تقدم منه فضمه إلى صدره وقال له

أنا علي بن أبي طالب دع لي محمد العكيوي فأنا صاحبه.

قال السِّي محند أوبنَّاصر: ومنذ ذلك اليوم لم يكلم الفقيه السِّي عبد الله، الله يرحمه، محند العكيوي أبدا في الصلاة.

كانوا ينزلون من المرتفع الصغير حيث توجد المقبرة، وقد امتلأوا حزنا، ليس لموت العكيوي في حد ذاته، ولكن لأنهم أصبحوا كمشة صغيرة في مواجهة الموت الزاحف. ولا شك أن فكرة الحديث عن هذا الموضوع قد راودتهم جميعا، لكن أحدا لم يجرؤ على الخوض فيه. كان الفقيه السِّي محند أوبناصر، وحمادي بن شعيب، ومزيان العكيوي وأحمد ولد محند سالم يتساءلون في قرارة أنفسهم على من ستدور الدائرة في المرة القادمة، وكانوا ينظرون إلى الطّلبة الخمسة الغرباء عن الدوار كأشخاص خالدين لن يلحقهم الموت أبدا، لأنهم ليسوا من بومندرة. وسيذهبون بعد حفظ المتون أو قبله إلى حيث يشتهون. فكانوا يتمنون أن يشق ذلك عليهم حتى لا يبقوا وحدهم في مواجهة هذا التناقص المريع.

عند وصولهم إلى "حفرة المعدن"، وهي الحفرة التي كان أهل الدوار يستخرجون منها التراب الأبيض لتبييض بيوتهم، صاروا يشرفون على باحة بيت السِّي بلحسن فوصلهم عواء المبروك الذي لا يتوقف عن الدوران في الفناء المغلق حتى يغلبه النوم. فقرفص الفقيه تحت شجرة التين جنب الحفرة، وقرأ الربع الأول من الحزب السادس والأربعين "فنبذناه بالعراء وهو سقيم".. باسطا يده بين الفينة والأخرى، علامة التسليم كلما أطربته حكمة قرآنية ساطعة.

XI

مرت الآن أكثر من عشرين سنة على خروج محمد الفرسيوي من بومندرة، تلبية لعرض سخي من دوار عين السِّي عمار حيث لم يقض في شرطه سوى يوم واحد، رحل بعده إلى مكناس، وهي نفس المدة التي انصرمت على أول مرة سقط فيها في شباك تينك العينين السوداوين لامرأة لا يعرف حتى الآن إن كانت من الإنس أم من الجن.

ظهرت المرأة في حلقة محمد الفرسيوي مرة واحدة في مكناس، ثم ظهرت ثانية في مراكش. وحدث له معها ما حدث في ضريح مولاي إبراهيم طير الجبال. ثم اختفت. وعندما اشتد به الوجد وهام في الأرض مغلوبا على أمره، وهجر ما يقبل عليه الناس من فراش وطعام ودعة، وكلم نفسه في الطرقات، وفاضت مآقيه في غياهب الليل، قاده التيه ذات فجر إلى مسجد صغير، في تلة شرق مراكش فأطلع الفقيه على حاله واهتم لهمه فأشار عليه بزيارة قبر سيدي شمهروش ملك الجن

الذي يحكم بين الجن والبشر، ويخرج الساكن من خشبة المسكون، فاتجه محمد صوب الجبل. كان خروجه إليه فجرا من إمليل، وصوت الماء وحده يرغي ويزبد نازلا من الأعالي، لاَ يشوش على زئيره نداء ولا حديث. تبع الماء صعودا، فمر تحت أشجار الجوز الضخمة، ومشى في رقرقة الماء العذب، ثم استدار السبيل فصار ينأى عن خيط الماء حينا، وحينا يقترب، وكلما تقدم صعدا خَفَّ صوت الماء وصار خريرا خافتا في الأعماق، تحضنه سكينة باردة، هي سكينة الفراغ والتربة الجرداء. مشى محمد رافعا صوته بين فينة وأخرى بالجلالة، تردد الجبال صداها فتفزع الغربان ويملأ الصوت طراوة ذلك الفجر الصافي.

في مكان ما من جسد الأطلس الكبير يعود الماء للسطح متقافزا ككائنات مذعورة، وهناك تحديدا يوجد قبر ملك الجن. أحس الفرسيوي بالدنو من المقام حتى قبل أن يلمح الأبنية الدقيقة المحيطة به، فخلع بلغته واستسلم للهائه لاهجا بالذكر، وكلما اهتز قلبه من رهبة الزيارة اتقدت لذلك جمرة وجده، كأن نسيماً هب على جذوته الخابية، فكان يختلط في أعماقه العشق والرهبة، الزهد والإقبال، الشهوة والنسك، وهو يتبع صوت الماء المنحدر من علٍ في جلبة تحيط بالمكان وتحرسه، وتبدِّد رهبته العاتية.

على صخرة جنب زئير الماء استوى ما يشبه القبر، وهو صخرة مائلة قيل إن الملك شمهروش قد دفن تحتها هكذا على وجه الأرض حتى يستطيع البشر اللجوء إليه للفصل فيما ينشأ

لهم مع الجن. دخل محمد إلى المقام الصغير وصلى ركعتين وقرأ ما تيسر من الكتاب. عند ذلك تقدمت منه امرأة بدينة ترتدي ثوبا فاقع الخضرة وتحدثت إليه من خلال اضطرابها وغيابها، ملمحة إلى شظايا من حياته تحتل فيها إمرأة مخطوفة الجنان بؤرة الحكاية. استمع محمدم مبهورا إلى ما يمكن أن يكون حياته، أو حياة أي كائن تعصف به الحيرة، ويطوح به الوجد، وقد وجد لذلك لذة أن تصبح مساراته الملتوية، شهواته السرية، تذكراته وحنينه، كل ذلك كلام في كلام، يجري على لسان دَرِبٍ، ويتلقفه الناس ليصبح فيما بعد محمل حكمهم وتسليتهم ونظرتهم إلى الحياة.

واستمرت المرأة وقد أخذتها فورة مفاجئة فألقت منديل رأسها على الأرض وحلت شعرا متسخا لا لون له وراحت تَنزل الدرج إلى قبر الملك، وتصعد منه إلى غرفة الجلوس، متحدثة عن الواقفين خلف صبيب الماء ينتظرون الدم الموعود، وعن السواد المنذور لأسيادنا، سواد الليل، وسواد مثل جناح غراب، سواد عين وسواد عمامة طوحت بها الريح إلى أصقاع سحيقة، فالتقط محمد من ذلك تلميح المرأة إلى الذبيحة. فما هي إلاَّ لحظة حتى كان يعتلي الصخرة الضخمة التي تحيط بالقبر ويريق على نداها الصباحي دم جدي أسود ما إن مر السكين على عنقه حتى علا خوار المرأة التي سقطت في الباحة وصارت تنتفض كأنها هي التي ذُبِحَت. سيمضي محمد في هذا المكان المليء بالرهبة والألفة سنةً كاملة. وكان إذا اشتد به القنط ينقبض صدره ويضيق تنفسه فيصدر زئيرا مكلوما

يضيع في صخب الماء، عند ذلك كانت المرأة ذات الثوب الفاقع الخضرة تحرق بخورا وتمر به في القبر ثم تصعد بدخانه نحوه وهي تطلب التسليم. فإذا هدأ راحت تروي له قصص الذين صبروا حتى أذن لهم الملك بالانصراف، وقد أخرج الساكن من الخشبة وألقى به من أعالي جبل توبقال إلى المنافي الصخرية السحيقة.

فكان ذلك يزيد من قنوط محمد، ويملأ قلبه بحسرة ثقيلة، حتى كان ذات ليلة نام فيها جنب القبر تماما، ذاهبا برهبته إلى أقصاها، مروضا رعبه من ظلام القبر وأشباحه. فما إن أخذته السنة الأولى من النوم حتى رأى فيما يرى النائم أنه يدخل بومندرة فجرا، فيجد عند المقابر، في تلك الربوة المشرفة على سهول زكوطة، وجبل سلفات، شيخا مهيبا يلبس جلباب صوف من الحبة الناصعة وعليها سلهام السّوسْدِي الناعم مثل غلالة، وقد علت وجهه ذا اللحية البيضاء ابتسامة منيرة. لم يكن الشيخ شخصا معروفا لديه فخمن أنه قد يكون المرحوم الفقيه السِّي عبد الله، أو الشريف مولاي أحمد الوكيلي، فاهتز قلبه وراح مهرولا نحو يد الشيخ يقبلها، فسحب هذا الأخير يده وجذب جناح سلهامه فمرره على رأس محمد وقال له: على سلامتك! ثم اختفى.

استيقظ محمد فانسل من ظلمة القبر ونزل المنحدر حاملا بلغته بين يديه، فما إن بدأت تباشير الصبح تلوح حتى كان يعبر الظلال السوداء لأشجار الجوز المطلة على إمليل.

عند ظهور المرأة في حلقة مكناس، أي في أول حلقة

أطلق فيها محمد العنان لحكاية الفرسيوي، كان الأمر يشبه العثور على شلال ماء عذب بعد تيه في الصحراء. فقد ظل محمد لساعات طويلة بعد الحلقة لا يتذكر عيني المرأة كنظرة فاتنة فقط، بل يسمعها كانهمار بارد، ويحس وقعها على كل جزء من جسده وعلى كينونته العميقة، كأن النظرة خلق ثان، أو إعادة ابتكار لوجوده. وعندما فرغ من قراءة الحزب في الجامع الكبير بالمدينة القديمة أسند ظهره للحائط وأسلم قياد نفسه لتلك النظرة كما يسلم الإنسان نفسه ليستقر في ملكوت الله. فأحس عندئذ أنه انخرط في عمل جليل، وأنه وضع قدميه على سلم سيمضي به إلى أعالي لا رجوع منها أبدا، فما كان يعتريه وهو يسبح في اللون الداكن لتلك النظرة الرقراقة، لم يكن له علاقة بالشهوة ولا بالغواية. كان شيئا صاعقا يشبه انكشاف الحجب أو انفتاح باب السماء. ولم يكن يهمه أن يسعد بذلك أو يشقى. كان ما حصل له كافيا في حد ذاته، إذ أنه لو لم يحدث لكان ذلك هو الشقاء الأكبر.

في المرة الأولى التي التقى فيها بهذه النظرة أثناء الجذبة العيسَوية بحرم الهادي بنعيسى، ثم لما لمح الذراع الوضيئة تدله على بيت الماء، اهتم كثيرا لتخيل الوجه الثاوي خلف جمر تلك النظرة، ثم هجمت عليه أخيلة شهوانية فتبع وضاءة الذراع وانغمر في ذلك البياض الأخَّاذ لبشرة تكاد تشتعل من الصفاء. وربما اتخذت المرأة عند ذلك هيئات النساء اللواتي اشتهاهن من قبل واندمجت في ملامحهن لتصبح ممكنة وحقيقية. لكن كل هذه الأشياء تبخرت فيما بعد فلم يعد يفكر

في الوجه المختفي خلف مثلث الصوف، ولم يعد يملأ فراشه بنعومة الجسد المسكوب في غموض الحايك بل صار يجلس على شفا تلك الهاوية التي تلوح من العينين الفاترتين ويترك نفسه لغواية السقوط إلى عمق بلا قرار.

وقد سقط فعلا. كان ذلك عندما دار في حلقة مكناس، ليجمع تبرعات الحاضرين، زلت عيناه عندما انسابتا بدون حذر نحو نظرتها الكاسحة. فظل واقفا وقد جمدت يده الممتدة بالطربوش، وعبثا حاول استرجاع نفسه من ذلك الوقوع من شاهق. لم يستطع، كانت النظرة مزيجا من شهوة وضحك ودهشة ومتعة وتواطؤ ووعد ورضا وعتاب ودعوة وبكاء ووداع. ولم يكن محمد يعرف، وهو جامد في وقفته، ما إذا كان ما يزال ممكنا استعادة جسده من ذلك النزول السريع أم أن الهاوية قد ابتلعته إلى الأبد. لكن المرأة فهمت ما جرى فتحركت قبالته ومشت في الدائرة مشيا وئيدا لا يكاد يلحظ، فكان ذلك هو ما حرك جسده فدار مع الحلقة كما لو كان مشدودا بخيط لا يرى لجسد المرأة المتحرك. دار مادا طربوشه، ذاهلا عن كل ما حوله حتى اختفى جسد المرأة فكأنما أفاق من حلم. عادت الحركة إلى جسده والكلمات إلى فمه، وظل من كل ذلك شيء كالدوخة حملته على الجلوس بانتظار انفراط الحلقة، وهو ما حدث ببطء شديد ظن خلاله أن الحكاية قد ألحقت به لعنة ما، وأنه في اندفاعه لم ينتبه إلى خطورة اللهو بمصائر الجن كما يفعل المرء بمصائر الإنس. ومن يدريلله قد تكون المرأة هي نفسها سوالف! سوالف التي

لم توجد أبدا إلا في حكاية مرتجلة للترفيه عن الناس المتعبين.

ستمر سنوات لا يظهر فيها للمرأة أثر بتاتا. كان محمد يتقدم في السن، فيقلقه أن يظل وحيدا بلا ذرية تطيل أمد السلالة، لكن فكرة الاختلاء بامرأة ما كانت تشعره بالإثم، وتجعله يهيم على وجهه هربا. ثم يجد نفسه في عتمة الليل مضطرا إلى استحضار المرأة التي أسرته نظرتها والانخراط أمامها في بكاء حار معتذرا عما ذهب إليه فكره، وهل هو وحيد حقا من أصبح ملكا لتلك الشساعة الآهلة، هل يهم فعلا أن يترك خلفه ذرية أو اسما أو زمنا، أليس الأبد كله هو هذه النظرة الملتفعة بسواد يشبه غياهب الكون.

كانت المرأة تنتهي بتمرير أصابعها الدقيقة على وجهه وهي تهمس شاكية:

. لمن تخليني لله!

يغمض محمد عينيه الدامعتين حينئذ ويرد منفعلا:

. وأنا نقدر نخليك لله!

وخلال هذه السنوات العجاف كان محمد يطوف في أسواق البلاد، بين مكناس وفاس ومراكش والدار البيضاء، تستقبله الساحات والجوطيات وهتافات الصبية، ويزرع في كل حلقة حكايات مكتملة، وشظايا من حكايات لم تكتمل، يشبك خيوطا ويفكها، يلعب بالأزمنة والأمكنة، يرمي نتفا من سيرته في تربة الأحاجي الغابرة، ويسكب من هذه الأخيرة ما تيسر في نهره الصغير القادم من بومندرة والمتجه نحو مصب نهاية

بعيدة. حتى كان ذات يوم وهو يدور في الحلقة مادا طربوشه لتبرعات الحاضرين، رأى يدا وردية تلمع بخاتم فضي تمتد نحو فراغ الطربوش فرفع عينيه فإذا النظرة نفسها، تلك التي ابتهل أمام حلكتها آناء الليل وأطراف النهار، تنهمر على وقفته من شاهق فتنتها.

كان ذلك في مراكش، شاي الله أسْبعَةُ رجال، في نفس الحلقة التي يروي فيها منذ شهور حكاية المرأة التي جمدت السبع بنظرتها الحالمة. أسقط الطربوش من يده، وأمسك اليد الوردية وهوى عليها تقبيلا وهو يصرخ:

"أنا بالله والشرع معاك، ادعيتك لمولاي ابراهيم طير الجبال يلا من الإنس جودي، ويلا منِ الجن ارْحْمِي..."

انفضت الحلقة من حوله، واختفت المرأة. أما هو فقد حمل متاعه على كتفيه واتجه صوب مولاي ابراهيم مرددا نفس الجملة، نشواناً بملمس اليد الوردية على شفتيه، نشوانا بجنونه وبهذه الحياة التي تحفل بالاحتمالات المستحيلة. كان الناس يردون على هلوسته بجملة واحدة: شاي الله أمولاي ابراهيم! فكان ذلك يهدئ من روعه ويحمله على الاعتقاد بأن البشرية كلها تدعم بدعواتها فزعه إلى هذا الولي الصالح، وأنها تتفهم محنته. وتعبيرا منه عن الامتنان والرضوخ، نزل من الحافلة في سفح الجبل، وتوضأ في الماء البارد لوادي أسني ثم وضع بلغته في جرابه وصعد حافيا يردد من حين لآخر بترجيع عذب وإحساس عميق بالصغر أمام جلال الكون، نشيد الجلالة، كأنه يؤذن لانفجار صاعق سيأخذ كل شيء في صخبه، فلا يظل

هناك بعد ولا قرب، بل مجرد سَديم كثيف من اللذات الفانية.

وكان محمد على مقربة من الخلاص، لو أنه غادر الولي في لحظة إحساسه بالسكينة والسلام. لكن الشيطان وسوس له بالبقاء قليلا وتأمل الدنيا من هذا العلو البارد المضمخ بالدعوات والأذكار. وقد لعلعت في مكان بعيد من الجبل نغمات غيطة لا يزاحمها في تلك العلياء شيء. فأغمض عينيه واستسلم إلى دغدغتها حتى حصل ما حصل: نزلت ظلال الغروب على المكان، وتكوم الناس في مضاجعهم، وعلت أنَّات المرضى وهلوسات المجانين. وعندما هم بالقيام من مكانه أثنته عن ذلك يَدٌ حطت على كتفه وصوت أنثوي نحيل ظل يهطل وراء ظهره ليلة كاملة، كأنه مطر غزير يسمع من وراء حجاب. ظل الصوت ينسج كلمات حب لم يسمعها بشر من قبل، كلمات لا تقول مشاعر ولا شهوات، كلمات يأس وابتهال واستحالة. وكان محمد جسدا ذاويا تدير نبضاته تلك اليد الموضوعة على كتفه، والتي يصل ضوعها إلى أقصى مكامن جسده. وكانت الكلمات التي تنهمر من تلك النعومة الخفية تتحول عند وقوعها على جسده إلى خيوط حريرية تلتف حوله وتدفنه شيئا فشيئا في ضبابها الدافئ. كان يعرف أنها هي، وأنها قد لا تكون إنسا ولا جنا بل النبع الأزلي للكلمات والأحلام. وكان يعرف أنه سينام في عتمات هذا النبع، وأن شمسا ساطعة ستوقظه وتلتقي به للتيه، وأن كل تمائم الدنيا، وكل الذبائح، كل السادات والأولياء حتى شمهروش نفسه لن يستطيع فك إساره وإخراج الساكن من الخشبة.

XII

في أيام بومندرة، حسب تعبير حادَّة أوغْكِّي، وهي الآن أكبر من تبقى من أهل الدوار سِنّا، كان الجامع التحتي يغلي بطلبة القرآن، وكان المصلون في يوم الجمعة يغطون كل الصخور الملساء المحيطة به، وكانت "قاعات" الحصاد تلوح من بعيد كجبال من ضفائر شقراء، وكانت أدخنة الأفران تشق عنان السماء منذ خيوط الفجر الأولى ولا تكف عن تحليقاتها الراقصة حتى يحل الظلام، وكان الثغاء والخوار يملأ الرحب فجرا، فإذا غربت الشمس سمعت هدير عودة الأبقار وصراخ أصحابها من جبل سلفات.

وكانت سماء الدوار تترصع في صباحات الأعياد بالسبنيات المرفوعة على القصب المتمايل فيبدو ذلك مثل حقل من الأهداب الملونة. وكانت الأعراس تبدأ "بالدفوع" وتستمر أسبوعا بين ألعاب وأهازيج وأذكار. وكان الجامع الفوقي يضم مئات الصبية، يبدأون محو ألواحهم فجرا ولا يفرغون من

كتابتها جميعا إلا قبيل الظهر. وكان للدوار رجاله الأشداء الذين لا ترد لهم كلمة، وعلماؤه الأفاضل الذين تشرق وجوههم بأسرار القرآن، وأولياؤه أصحاب الكرامات، ومجالسه المضمخة بالذكر ونساؤه الحازمات، وأسراره وأحقاده وبلاويه، وكانت له شياطينه التي تشعل النار في العشب اليانع.

كانت حادة أوعكِّي تقول ذلك بسرعة، كأنما لتفرغ في جملة واحدة حياة لم يعد يجدي تذكرها، وتقول ذلك في مفتتح تلك الجلسة الصباحية التي تجلس فيها النساء متحلقات حول هموشة، أو يامنة، أو في فناء الدار التي تقطنها حادة أوعكِّي وتحتل وسطه شجرة تين ضخمة. في هذا المكان الظليل تجتمع النساء كل يوم ويحكين أحلامهن ويجتهدن في تأويلها. تبدأ الواحدة منهن بـ"خيرا وسلاما" ثم تحكي أحلامها. أحلاما آهلة بالموتى والإشارات الغامضة، مخترقة بأسفار طويلة وحروب، ملونة بمشاعر متضاربة، فما إن تنتهي الواحدة منهن من حلم حتى تنبري لها هموشة أوحادة أوعكي فتقرأ لها الإشارات الغامضة، وتحاول تفسير الحلم برمته كبشارة أو تحذير، مستعينة بشبكة من الدلالات المعروفة: فالثعابين تقصير في الصلاة، والنداء عودة الغائب، والعنب مطر، والتين مرض، والتحليق ثواب، والبكاء فرح، والضحك مأتم، وفقدان سن بلا ألم موتُ بعيدٍ، وفقدان ضرْس بألم موت قريب عزيز، واللباس الأخضر خبر سار، والأسود خبر سيء ... لكن الأكثر إثارة كان الحوار مع الموتى. إن كلامهم

القادم من الآخرة له سلطة نافذة، لذلك تجد النساء يجتهدن في التقاط إشاراتهم المبهمة، ولا يخفن شيئا مثل خوفهن من المواقف التي تحتمل دعوة ما للالتحاق بهم. وتجد من يحصل له ذلك مثل مسافر سمع صفير القطار، إنه ينحني للمٍّ أغراضه ويتقدم بخطى ثابتة نحو الرصيف. كذلك أهل بومندرة مع صفير موتاهم، ما إن يلتقي أحدهم في المنام بشخص من الدار الآخرة يحثه على المشي أو يأخذه معه لمكان ما حتى يحزم نفسه ويستعد للموت المحقق. لذلك تجد الذين يبطلون تلك الإشارات القاتلة يحكون حلمهم بنوع من المزاح، فيقول أحدهم إن الفقيه السِّي عبد الله، الله يرحمه، مر عليه في حوش الدار مبتسما بشوشا، وهو سبحان الله كأنه من أهل الدنيا، فقال بحزم يا لله أسيدي! لكن الذي لم يحن أجله بعد يستطيع أن يجيب في حلمه لا أسيدي الفقيه! أنا ما أزال مشغولاً، فيذهب الفقيه، ويضحك المستمعون من النهاية السعيدة لهذا الحلم الخطير.

أما ما عدا ذلك فإن إشارات الموتى تطبق حرفيا: إن قال أحدهم بضرورة إحياء ليلة منتصف شعبان في الجامع الفوقي فذلك ما سيكون، وإن أشار بغرس شيء أو قلعه أو حرث أرض أو بيع عجل أو تسمية طفل فذلك يعتبر أمرا قادما من دار الحق. وهذا ما حدث بالضبط لنجمة زوجة مزيان العكيوي عندما رأت في منامها ذات يوم رجلا مهيبا يلبس لباسا حريريا في خضرة الحقول يناديها باسمها وهي لا تعرفه، فتهرع نحوه وتقبل يده فإذا به يسلمها لفة بيضاء عطرة أمسكتها متوجسة فإذا

هي مولود ملفوف في خرقة صوف. سألت نجمة عن الأمر فقال الشيخ هذه روح من عند الله.

اختلفت النساء في تفسير هذه الإشارة، فمنهن من تشاءمت منها، فاعتبرت الوليد المهدى لعاقر إنذاراً بوبال جديد، لكن هموشة اعتبرت الإشارة بشرى يجب التستر عليها، لذلك فقد رددت خيرا وسلاما عدة مرات وطلبت من النساء كتمان الحلم حتى يظهر ما يظهر. وفعلا لم تمض سوى أيام معدودات حتى ظهرت آثار الحمل على نجمة، واكتشفت هموشة الأمر فأحاطتها برعاية خارقة وطلبت منها أن لا تحدث أحدا بهذا الشأن. لكن الخبر شاع بعد أيام وشاع معه في الدوار حبور عارم لم تشهده بومندرة منذ سنين لأن آخر عقيقة عرفتها مرت قبل أزيد من عشر سنوات عندما ولد المبروك.

وخلال شهور الحمل كلها كانت النساء تلتقين كل صباح في منزل نجمة، يأتين إليها بفطورهن، ويتحلقن حولها، يفطرن ما أحضرنه من فطائر بالنعناع وزيت الزيتون، والمحمصة بالحليب، والرفيسة بالحلبة، البيض بالثوم، والبَيْصَارَة والرغايب بالسمن والعسل، يقضين وقتا طويلا يتذوقن أطباقهن اللذيذة، ويحكين أحلامهن وجلها تدور حول الحمل والوليد المرتقب. أحلاما يتبادل فيها الأحياء والموتى أخبارهم ويستشيرون بعضهم بعضاً، يتخاصمون ويتصالحون حتى صارت بومندرة من جديد كما تحكي عنها حادة أوعكي تغلي بالطلبة والرجال والنساء والأطفال، أي بكل موتاها المترددين على أحلام الأحياء بأسئلتهم وحكمهم الإلهية. أما نجمة التي جاءت

من زمور فلم تكن أحلامها على صلة بما يجري في الدوار. كانت إذا حلمتْ لا ترى سوى ينابيع أو حقول، أو أشجار، أو أسراب من الطيور الملونة. وكل ذلك دونما قصة أو شخوص، فكانت تجد صعوبة في المساهمة في جلسة الأحلام الصباحية. لذا كانت هموشة تلح في استفسارها عن الطيور والعشب والماء والشجر، وهل كان الماء في الحلم صافيا، وهل مسَّتْه بأصابعها، والطيور هل كانت تنظر إليها أم لا، والأشجار هل كانت مثمرة، فتجيب نجمة مضيفة تفاصيل شحيحة لما روته، فتعلق هموشة على ذلك بغمغمة مستعجلة مؤكدة في كل مرة أن الحامل التي يحبها الله لا ترى في أحلامها إلا صورا من الجنة.

في تلك الأيام المتوترة، عرف دوار بومندرة ثلاثة أحداث: أولها عودة اغمار بن سلام الفرسيوي من ألمانيا بعد غيبة دامت أزيد من عشرين سنة ؛ وثانيها هروب الماء من "العين التحتية" ؛ وثالثها إصابة مزيان زوج نجمة باضطراب ذهب بعقله.

كانت في بومندرة عينان عذبتان. عين الدشر وهي ذات ماء دافئ يستعمله الناس لأغراض مختلفة، والعين التحتية، ذات الماء المثلج التي لا يشرب أهل الدوار إلا منها.

تخرج العين التحتية من صخر أبيض ناعم يقع أسفل الدوار، بين أحراش الوادي ومسالكه الوعرة، لذلك فلا أحد كان يستطيع النزول ببهيمته لجلب الماء، فكان الأطفال والنساء ينزلون الممر الصخري بقللهم، وبرَّادَاتهم المزوَّقَة، ومنهم

فتيان خفاف لا ينزلون إلا قبيل تقديم وجبة البيصارة، فيملأون البرادة بالماء البارد الصافي، ويعودون به للمائدة وهو ما يزال "يُفَرْكِلُ" كما يقول بعضهم.

كانت بومندرة قد عرفت قبل سنوات تجربة الانتخابات القروية، وخرجت منها بعلاقة متوترة مع المخزن، عندما اختارت الفقيه السِّي محند أوبنَّاصر وبهدلت مرشح القيادة. وكان نصيبها من هذه المؤسسة الجديدة بناء سقاية وسط الدوار، تصلها أنابيب معدنية بالعين التحتية، هناك حيث أقيم بناء صغير ركب به محرك ومضخة لتزويد سقاية الدوار بالماء الثلجي لعين ارتبط السقي منها بعشرات الحكايات والمغامرات.

اشتغل المحرك لفترة قصيرة ثم صارت تلحقه الأعطاب. واختلف أهل الدوار حول شراء الوقود، وحصل من كل ذلك اضطراب كبير كان من نتائجه أن انقطع تردد النساء والفتيات على العين، فأصبحت بومندرة في غاية الجفاف والقسوة، ثم مرت سنوات على إقامة المحرك والمضخة بدون فائدة. وبدأ الناس يمرضون، وشاع أن ذلك لانقطاعهم عن الشرب من العين التحتية. عند ذلك اتجه رجال الدوار إلى عين المكان وحفروا أسفل البئر لإرجاع العين إلى منبعها، حفروا أياما وأياما. كان الماء ينبجس بكميات قليلة جدا، ثم يختفي إلى أن وصل الحفر إلى الحجر الصلد فاقتنع الجميع بحزن صاعق بأن ماء العين التحتية الذي كان معينا منذ الأزل قد هرب. وأن هذه ليست سوى لعنة حلت بسبب اعتداء البشر على مكان له أهله.

وقد ذبح أهل بومندرة على الحجر الصلد استرضاء لأهل المكان قطعانا من الماعز وأسراباً من الديوك البيضاء والسوداء التي لا إمارة فيها. لكن الماء كان قد هرب إلى الأبد.

عاد عمار بن سالم الفرسيوي من ألمانيا فجأة صبيحة ذات يوم بارد. ترك سيارته في دوار ابني مرعاز التي وصلتها الطريق أثناء غيابه، وصعد الحافة الموحشة الوعرة، لم يقف لالتقاط أنفاسه من تسلقها حتى وصل إلى المقابر.

لكن الناس في بومندرة سيعيشون هذه العودة كصدمة قاسية، لأن الرجل الذي دفع الباب المتداعي لبيتهم القديم بعد طرق خفيف لم يُستجب له، سرعان ما أطلق صرخة فزع مروعة عندما تهاوى الباب وانبعث له من الخرائب المتربة ثعبان ضخم رفع رأسه عاليا وصار يترنح كما لو كان يرقص لهذه الزيارة المفاجئة.

سيستفيق الدوار على وقع تلك الصرخة التي أيقظت أيضا عواء المبروك، وعندما اجتمع الناس في حوش هموشة زوجة الفرسيوي التي راحت تسرد أخبار الموتى من خلال نحيبها وتبكي سَلاَّمَ وكنزة اللذين ماتا قبل أن يكحِّلا عيونهما بهذه العودة، انتبهوا جميعا إلى اللون الفاقع الذي كسا وجه اعْمار الفرسيوي، وقرأوا في امتقاعه هول اندثارهم البطيء. وفي تلك اللحظة فقط أدركوا أن ما حدث لبُومنْدَرَة كان رغم بساطته الظاهرة شيئا في غاية الهول. وقد كان طبيعيا أن يغرقوا فورا في كآبة قاتلة، وأن يصيبهم هلع الذين لم يعد لهم أي حظ في النجاة، إذ ما الذي يستطيع إنقاذهم من ذلك وهم يرون اعْمار

صريعا لذهوله ويرون مزيان وقد انتابته نوبة بكاء حادة يتجاوز ذلك إلى صراخ حيواني موقظا في نفس الوقت عواء المبروك من جديد لله لكن شيئا من ذلك لم يحدث لهم، فقد دخلت عليهم في تلك اللحظة زوجة أحمد ولد محند سلام وهي تعدو حاسرة الرأس وهمست في أذن هموشة بشيء انفرجت له أساريرها فغادرت النساء الحوش مهرولات وفهم الرجال أن نجمة قد جاءها المخاض.

هكذا لم ينتبه أحد أثناء الحبور الناعم الذي لف الحوش إلى اغمار. وقد جرى مبتعدا عما اعتبره مجرد كابوس، كما لم ينتبه أحد إلى مزيان وقد هام على وجهه مستهلا جنونه بتلك الهرولة اللاهثة بين العين الناضبة وأحراش الصبار المحيطة بالجامع الفوقي والصهريج الفارغ فوق السقاية اليابسة. ورود صفراء، وزرقاء، وبنفسجية، وبيضاء، أشرطة قزحية ندية تلعب بها نجمة وهي تمشي في أرض كالسحاب. أطياف تظهر وتختفي، صوت هموشة يصلها بعيدا مثل نداء بعيد، تسمع من خلاله إشارات مبهمة عن وليد يكاد ينزل من رحم أمه، فقط لو تحزم الأم نفسها وتدفعه قليلا. ترى نجمة نفسها من جديد في مراتع خضراء تتخللها بقع ملونة، وتسبح في صفائها أطياف وإشراقات. ترى مزيان محلقا يلاعب صقورا وأفاعي ويعبر بجسمه المرن بين التواءاتها وخفقها السريع. ترى وليدها كما رأته في حلم سابق ملفوفا في خرقة صوف والرجل البشوش الذي سلمها إياه يتبعها بنظراته الحنونة. هي لا تراه فحسب، بل تسمع أيضا صراخه، وتسمع زغرودة واهنة ضحكت لها،

لعلها زغرودة هموشة وقد ذهب الزمن برنينها الأخَّاذ. ثم ها هو الشيخ الجليل نفسه يقبل عليها وبين ذراعيه طفلة بضفيرتين شديدتي السواد فتمد يدها فلا تجد من جديد سوى أشرطة قزحية تمسك أطرافها وتأخذ في اختراق الهواء بها وهي تجري فوق أرض ناعمة وتحس لذلك بلذة غامضة أسفل بطنها.

انحنت هموشة على نجمة المبتسمة لتلتقط بسمعها الثقيل شيئا تود قوله، فدفعتها حادة أوعكِّي غاضبة:

. اييه أنجمة، بنت، شعرها طويل

. صحيحة أبنتي، وعينيها محلولين

. بضا بحال الحليب، بيضا ومبشورة، وعينيها كبار وكوحل. إيوا يا لله أبنتي. ثم استدارت لهموشة التي لفت المولودة في خرقة صوف بيضاء: إيوا أهموشة عطيها البنت ترضع. يا لله.

قامت حادة إلى طاقة البيض، وبدأت تعد وصفة البيض بالفلفل الأسود وسكينجبير المنصوح بها للمرأة النفاس. وعندما لاحظت هدوء هموشة استدارت نحوها، فإذا هي قد ضمت الوليدة إلى صدرها الضامر وراحت تبكي بصمت.

ألقت حادة بنظرها صوب نجمة فوجدتها ما تزال مبتسمة كما تركتها. نهرت هموشة غاضبة وطلبت منها إرضاع البنت قبل أن يهرب حليب أمها. لكن هموشة كانت تبكي، وتشير إلى المرحومة التي ارتسمت على محياها ابتسامة الموت الهنيء.

وكل هذا حكته هموشة للفقيه السِّي محند أوبناصر، مثلما حكت له أحلام نجمة كلها، والبنت بين ذراعي رقية بنت علال الفرسيوي زوجة الفقيه، تراقب بعينين واسعتين كل ما يدور حولها وقد أشرق وجهها الطفولي ببهجة عارمة.

وفي هذا اليوم ذبح الفقيه السِّي محند أوبناصر كبشا عظيما وسمى به البنت نورية. فعل ذلك في صمت وعكس ما تمنته بومندرة، بدون زغاريد.

XIII

لم يكن الأمر في البداية سوى لعب عابر، فقد رأى نورية تحت شمس ساطعة، ورآها باسقة مثل شجرة، ثم انتهى للاعتقاد بأنها هدية الله لهذه القرية المحتضرة. بل تخيل كل ناصر الحياة في بُومنْدَرَة مبتهلة لا تطلب من الخالق سوى هذه المرأة بالذات، كائنا من ضوء يعبر نهايتها، ويصبح فناءها العميق، بعد أن أنشب الفناء الآخر أظافره في مصائر الناس والأمكنة. وأي فناء أهول من أن يهجم هذا الجمال الخارق على قرية لم يعد فيها من يستطيع القتال من أجل تدفقه السخي!

أما اللعب العابر، فقد بدأ عندما آوى إلى فراشه واستحضر تلك البنت اليافعة، وهي تغسل قدميها تحت شجرة التين. لقد عنَّ له عندئذ أن يطل من فتحة قميصها فيتملى النهدين الصغيرين، وأن يمر بأنفاسه على جيدها، وأن يحملها بين يديه ويدفن شهوته الملتاعة في فيئها العذب. وقد كان له ما

اشتهى: مر في كل أصقاع جسدها، ونال من فاكهتها، واخترقته اللذة حتى صعقته أهوالها، وما هدأت تلك النار التي أوقدها لنفسه لاعبا، فأضحت دائرة محكمة من الجمر والوجد. ومرت عليه أيام كان لا يفعل فيها شيئا، سوى النظر إلى نورية، وهي تقعد تحت التينة صباحا، ورقية بنظرتها الغائبة تسلم جسدها لشمس الظهيرة وتتمتم بما تحفظه من أوراد وأمداح. ينظر إليها بملء ما فيه من صراخ، ومن كلمات بوح، فلا يكسر هدير دواخله إلا تحَركها نحو البيت أو خارجه، فيقوم كالمسلوع ويظل يحجل في مكانه أوَ يجري على غير هدى، وقد داهمه يأس جارح، يُصَعِّد نحو مقلتيه سحائب مالحة تروح في إغداقها بسخاء من أجل لا شيء أو من أجل الشيء كله.

كان محمد الفرسيوي قد صار عاشقا لا يقوى على فهم حاله، تتوزعه اشتهاءات حمقاء ويخلص بعد طول مكابدة إلى اليأس من كل شيء. لأن البنت لن تكون له أبدا. ولو كانت له لما أسلمت نفسها إلا كما يسلم القربان نفسه، من أجل افتداء قاهر، أو استجابة لِقدر غامض. وهي لو كانت له لعاشت ذلك كامتحان صاعق لا يد لها في رده، ولن يمسك من المتعة عند ذلك سوى تلك الفقاعات الجوفاء التي يسمح بها اليأس والخشية. ثم أية متعة تستطيع إطفاء الشهوة حين تصير عذابا، أي لذة تستطيع إرجاع الروح إلى مستقرها آمنة مطمئنة، بعد أن هججتها فتنة المستحيل لله هكذا تحولت ليالي الاستيهام العمياء، التي كان محمد يمجن فيها حتى أقصى حدود

الفجور، يمتهن فيها جسد نورية بشتى أنواع الإخضاع والمغالبة، إلى ليالي انخطاف طويلة. ليالي ذهول مرهف تسلم فيها الذات مقاليدها، أبهاءها المنيعة إلى ثلج المطلق، حيث لا جسد ولا روح، لا قبح ولا جمال، لا تحقق ولا استحالة، بل مجرد خواء لذيذ يغمر الكائن كما غمر الماء كينونتنا الأولى. وعند ذلك تستطيع فكرة الوجود أن تومض فجأة وتغمر الكائن بالسعادة والإدراك، في لحظة دقيقة كرمشة العين، يتبدى فيها العمر قطعة واحدة في حجم صفحة شفافة، تمنح كل تفاصيلها وتشابكاتها. تظهر البداية والنهاية دون أن تكون أي منهما بداية ولا نهاية. تظهر التقاطعات والفراغات مصممة بدقة محكمة لا مكان فيه للصدفة أو للفجاءة. يظهر المصير المجلل بالعتمات، مجرد ممشى نحيل لا أثر فيه للمدهش. تلك كانت حالة محمد الفرسيوي، وهو يتلقى هدية خالقه في ليلة من ليالي عشقه في شكل انكشاف لورقة العمر وهي ترسم في بلورها الشفاف رحلة بين الفناء والفناء، بين الغواية والغواية، فأدرك أن مكابدته أثمرت، وأن عشق نورية ليس سوى ثمرة تلك المكابدة الطويلة التي اتسقت شبكات من اللوعة والفقدان. وفي تلك اللحظة أدرك أنه لم يعد بينه وبين الرحلة الأخيرة سوى أن تصبح هذه السكينة هاوية تأخذه في زوبعتها الحانية، وأن أرضا بعيدة تنتظره لإحكام تلك السكينة، أرضا بعيدة ومفصولة عن كل شيء سابق أو لاحق، أرضا مسافرة ومتقلبة، خصبة وقاحلة، مزيجا من صقيع وسعير، مزيجا من عذاب وخلاص. كانت حالة الوجد تطوح به فيخرج

من البيت ذاهلا، تحف به النظرات المتعبة لهموشة وهي جالسة تحت السقيفة، مأخوذة في عاصفة حديثها العصبي الذي لا تفتر عنه إلا عندما تأخذها سنة من النوم.. يمضي خلف السور حتى يصل إلى الممر الترابي المحفوف بالصبار، فينزل منه إلى صخرة الجماعة، ثم يهرول في المنحدر حتى يصل إلى المنبع القديم للعَيْن التحتية فيجلس هناك ساعات طويلة ينصت بكل كيانه لما يعتقده نبعا بعيدا للعين الهاربة. ينصت لنبضه الندي، ولرقرقته ويبكي، يبكي من حزن ومن سكينة، ولا يعرف إن كان ذلك من أجل نورية أو من أجل العين، أو من أجل الفرسيوي أم من أجل هموشة. من أجل تفنوت، أو الريف أو من أجل بومندرة. من أجل المرأة التي نهشت حياته أم من أجل الحلقة التي هجرها.. يبكي بنوع من الابتهال الغامض، بل وبنوع من الإرادة المحكمة التي تسبل الدمع، وتنشئ ارتعاشات الوجه، وترسل اختناقات الجسد كما تشاء، كما لو كانت طريقة لاشتغال هذا الكائن، لا تستقيم الحياة في جسده بغير هذا التدبير الدقيق، الذي ينتهي بنفس الهدوء الذي بدأ به. يقوم محمد وقد مرر كم جلبابه على وجهه البليل، ويمضي يمين المنبع القديم بمحاذاة أحراش الوادي، ويروح يجاهد أغصان الأشجار الشوكية ليخترق لنفسه ممرا في هذا السرداب الظليل البارد، الذي تنط أرانبه وثعالبه مذعورة، ويصفق حمام الأعالي كلما اهتزت الأغصان.. يمضي تاركا للأشواك الحادة أن تطبع على وجهه وجسده خدوشها الدقيقة كأنما يرسم بذلك على بدنه خريطة تيهه الغامض، حتى يصل

إلى نهاية الوادي فيجد نفسه في عراء السهول المنبسطة التي تبدأ بعين لوطا، العين الغزيرة الواسعة التي لا تشبع غيرها قطعان الأبقار والأغنام، والتي ترسل ماءها عبر ساقية سخية لتروي الجنان الممتدة عبر خيط رفيع من الخضرة والشذى حتى مشارف العرصات الفيحاء لعين جعفر.

بتوضأ محمد في عين لوطا ثم يصعد نحو بومندرة عبر المرتفع الصخري تاركا الخندق، بظلاله وأحراشه وينابيعه عن يمينه، فيتوجه وهو يتلو القرآن نحو مزارع الزيتون التي تبدو من هذا المكان كما لو كانت آخذة في الانحدار نحو الوادي. يتحايل على المرتفع راسما بخطوه انعراجات صغيرة يمينا ويساراً حتى يصل إلى جنان الجامع، فيجلس تحت شجرة الخروب ويرسل بصره وهو يستعيد أنفاسه نحو السهول الممتدة حتى جبل سلفات. يرى كل ذلك الاتساع النظيف المنبسط فيشتهي أن يطير، يشتهي أن يحلق عاليا، وأن يمكنه التحليق من السفر في الزمن وراءً حتى الطفولة، حتى الأيام التي كان ينهل فيها من حكايات الفرسيوي، ويجلس في الأماسي قابضا بلسانه الرطب على شريط الكلمات القرآنية المضيئة يسلم بعضه إلى بعض كخيط ماء لا انفصام بين نقطه. يشتهي أن يطير ويلتقي بنورية في ملكوت الله الأبدي خارج الأزمنة والولادات. هكذا يسلمه وجد إلى وجد فيرفع صوته الرخيم بأنشودة البردة، أو "بانت سعاد" أو بعضُ أشعَار ابن الفارض الرائجة في جلسات السماع. كان لا يفهم من تلك الأشعار إلا ما تختزنه رناتها من لِوعة تحمله على أجنحتها فإذا بحبور ناعم

يخترق ذاته حتى يرفعه من صلابة الأرض إلى عنان السماء. ويكون ذلك تحليقا ناعما يغمره بعذاب لذيذ، لا يدرك منه سوى كدمات البدن الذي تستقبله هموشة في مدخل الدار الخربة، وهي تئن أناتها المتقطعة وتمسح جروحه وتنظف رأسه وثيابه من كل أدران تلك الرحلة الساحرة. ومحمد يرد على عتابها الأليم بتقبيل رأسها والتظاهر بالمرح والجوع:

. أجيبي للمجذوب ما ياكل ألفقيرة!

فتزحف هموشة منحنية يكاد وجهها الطفولي يختلط بخطاها، أما محمد فينكفئ على كدمات روحه، يلعقها كحيوان جريح ويحس في غمرة سعادته بامتنان عميق لنورية أن هيَّأتْ له سبل هذا الامتحان الأبكم الذي يبدد وجوده ويجمعه مثلما تذرو الريح ذرات الرمل وتجمعها. لأن ذلك يجعل الأجزاء المتناثرة على قدر هائل من الصفاء والأبدية.

تقوم نورية بأعباء البيت صباحا. وقبل أن تذهب بالبقرة إلى عشب الوادي، تضع رقية على مصطبة الطين المفروشة تحت التينة الضخمة وتضع في يدها نشاشة الذباب، وفي متناول يدها قدح الخزف المليء بالماء، ثم تلوي الحبل في شكل دائرة تلتف خلف كتفها وتدور عبر راحتها، وتمضي خلف البقرة.

عندما تقوم نووية بكل تلك الحركات المألوفة، تكون عادية وبسيطة. فتاة ناضجة ولما تبلغ الخامسة عشرة من عمرها. نحيفة تكاد تكون ذابلة. وكانت بسبب طولها المفرط تميل إلى إحناء قامتها ورفع كتفيها حتى أنها تبدو كما لو كانت

معلقة. أما عندما تجلس قبالة الفقيه السِّي محند أوبنَّاصر لتستظهر الأحزاب الخمسة المقررة لكل يوم بعد صلاة العصر، فإنها تقرفص ثانية ساقها اليمنى ورافعة يسراها على شكل مثلث تمرر منه يدها اليمنى لتمسك بأصابع يسراها، فتكون عندئذ كما لو كانت جالسة في أرجوحة. فكان الفقيه يستمع مغمض العينين لتدفق "المبين" كما كان يسميه، من شفتيها الورديتين، ويهتف من حين لآخر بزوجته المريضة أن تسمع كيف تطقطق بنتها عظام القرآن، فتبتسم نورية، وتحمر وجنتاها، وعند ذلك لا يستطيع أحد من الجن ولا من الإنس أن يكمل فيها الشوفة.

كانت نورية ترتدي في كل الأيام عباءة فضفاضة من صوف السُّوسْدِي مسدلة على قميص أبيض. أما في الأعياد فتلبس دفينة أمها المرحومة من ثوب الكوردو وتضع على رأسها سبنية طويلة الأهداب، فكان ذلك يجعلها مثل طفلة، لأن كل أثواب المرحومة كانت قصيرة على قامتها، وبها خفة من أهل زمور لا تتناسب مع الفقيهة الوقور. لكن ساعة الفتنة هي تلك التي تأخذ فيها نورية إناء الفخار فتضع فيه قدمها وهي جالسة على مصطبة التينة الضخمة، وتروح وقد رفعت قميصها الأبيض قليلا تمرر قطعة الحجر الصلد على أديم قدميها وكوعيها وساقيها، لفترة طويلة، حتى يظهر الجهد في احتقان وجهها وتلاحق أنفاسها. تفعل ذلك كل يوم لأنها تكره أن تتكون على هذه الأجزاء من جسدها تلك الطبقة الخشنة الصفراء التي تغطي أقدام القرويات. وتفعل ذلك عند الظهيرة،

أي في تلك اللحظات الحمقاء من النهار حيث تكون الأرواح قانطة، والأجساد متوترة، والمشاعر العنيفة في أوج تأججها. وفي تلك الأثناء يكون محمد الفرسيوي واقفا في سقيفة المصرية المطلة على باحة هذا الاغتسال البهي. يتبع كل حركات نورية ويملأ كيانه بتفاصيلها جزءا جزءا. كان يتبع انسكاب الماء على ساقيها فيحس ذلك غبطة وسلاما، ويرى انكفاء الجسد، وتلك الرعاية الفائقة التي تقود الحجر على بياض البشرة ونعومتها، فيحس ببعض الدعابة في أن الأمر يبدو كما لو كانت تنحت نفسها. هكذا فإن قدمها كلما خَرجت من إناء الطين أو عادت إليه تكون كتلك القدم التي تمر في خيال النحات كاملة قبل أن يعود إلى جزئها الضئيل وينكب على ابتداعه في قسوة الحجر. يصير محمد الفرسيوي عبر حركات نورية رائيا ومبدعا يحس بهشاشة تلك البشرة المائية، وهي تتسق في ضوء الظهيرة ناعمة بعيدة، ويحس برودة الصَّخر الذي يصقل البشرة. فإذا رفعت نورية عينيها ورأت ذهول المجذوب في السقيفة، انكفأت بسرعة واحتدت في حركاتها. عند ذلك يصرخ محمد متألما: وماشي هاكداك أنُورية. ما شي هاكداك! فتوقظ صرخته بلابل الظهيرة، وتلك الأرواح القليلة التي ما تزال قادرة على الابتسام.

XIV

الطريق ليست ممرا في جبل أحمر، تحف به الخضرة ورقرقة الماء. أو هو ليس كذلك فحسب، بل أيضا تحليق أزرق، وشذى لا يُشبع، مزيج من احتراق بعيد، ويناعة ذائبة. أسمع الخطو الوئيد لرجل متعب يحملني على قفاه، وأسمع صوته لاسعا في صمت الفجر، كأنه يغني، ولم يكن يغني. كان يحدث نفسه، فإذا أحس أني ملت سباتا حدثني، وكرر لي نفس الجملة التي ابتدأنا بها الطريق: "حل ودنيك مزيان". أنت لن تعبر هذا المكان مرتين. الوادي أخضر، ونحيف، وأنا أتقي أغصان الأشجار الضخمة عندما نمر تحتها بأصابعي المخدوشة، وأبي يصعد بلا تردد، يصعد بمشيه ولهاثه وحكايته.. وأنا أحدس أن هذه الرحلة التي تشبه نحيبا مكتوما ستؤلمني ولكنني لا أعرف كيف أقول ذلك. كنا نتقدم عكس اتجاه الماء، ذلك الماء البارد الصافي، الذي يشبه صوتا رفيعا، وكلما صعدنا صار صوت الماء أعلى قليلا حتى إذا عبرنا قرية اختفى الصوت وحلت محله سكينة وارفة، هي

سكينة الطين، المجلل بعذوبة الغبش وبالإفاقة الهادئة لحياة بدون جلبة. يسكت والدي أيضا، فأمد أصابعي للحيته الكثيفة وأعبث بها سعيدا بخشخشتها الناعمة، حتى إذا صارت حمرة البيوت وراء ظهرنا، وعاد صوت الماء، انقض والدي بأسنانه البيضاء الكبيرة على راحتي مفتعلا التهامها، فيبهجني ذلك، ويضحكني كثيرا، فأبوس قفاه، وأشم رائحة شعره وعرقه، وأجد لذلك لذة الماء العذب. أما هو فيصمت طويلا عندما يصير سعيدا، حتى أخاف من صمته، فأمد أصابعي إلى خده لأعرف ما إذا كان يبكي، ويفهم هو ذلك فيأخذ أصابعي ويلثمها فأنتفض فرحا، وأمسك أنفه قائلا:

. أدي نزولك هاد المنخر.

. إوا، ونبقى أنا بلا منخر لله!

ثم أمسك بأذنيه قائلا:

. أدي نزوليك هاد الودنين!

. إوا، ونبقى أنا بلا ودنين لله!

ثم أطوق رأسه وأقول:

. أدي نزولك هاد الراس ..

. إوا، وتبقى بلا بَّاك ألحمق لله!

سنلعب هكذا حتى يغلبني النعاس مرة أخرى، فأسمعه يصرخ بي: أحَلْ ودنيك مزيان! فأعرف أنه عاد للحكاية.

كان عمري في تلك الرحلة عبر الأطلس الكبير، صعودا من وادي تفنوت حتى قمة تيزي نتغراضت، ثم نزولا عبر

منحدر أحنبوب حتى سيدي شمهروش، ثم إمليل فمراكش، وأنا على كتف والدي، ثلاث سنوات ونصف. وقد استغرقت الرحلة مشيا ثلاثة أيام، بِتْنا خلالها ليلة في القمة، وأخرى في ضريح سيدي شمهروش. وعندما كان يسألني والدي بعد سنوات هل ما زلت أحتفظ في ذاكرتي بتفاصيل تلك الحكاية الطويلة، أنكر ذلك وأدعي أن عمري لم يكن يسمح لي بالتقاط ثلاثة أيام من الحكي الكثيف المتشابك، لكن والدي محمد الفرسيوي الذي حفظ أحاجي كثيرة وهو ما يزال رضيعا لم يكن يفهم ذلك. فكان يبدي أسفا شديدا لأنني سأعيش بقية حياتي مثقلا بهذا النسيان. وعندما كنت أؤكد له أن الأمر في غاية البساطة، إذ يكفي أن يعيد علي الحكاية مرة أخرى، كان يبتسم من سذاجتي، ويقول لو كان ممكنا أن يفعل ذلك لأعاد أيضا حياته، ولعل هذه القناعة الأخيرة هي التي دفعتني للقيام برحلة ثانية مشيا على قدمي هذه المرة، عبر الأطلس الكبير انطلاقا من امسوزارت مسقط رأسي التي وصلت إليها بعد عبور تيشكا والصعود من أكويم عبر تديلي إلى وادي تفنوت ثم الاستمرار حتى تيزى نتغراضت والنزول عبر احنبوب حتى إمليل مرورا بسيدي شمهروش. كنت أقول لنفسي في بداية الرحلة، إن الناس عادة ما يتصورون قناعاتهم حقائق مطلقة، ومن ذلك ما ادعاه والدي أنني لن أعبر هذا المكان مرتين. لكني سرعان ما أدركت بعد الخطوات الأولى أن الأمكنة مثل مياه الأنهار، لا يمكن السباحة فيها مرتين. لقد عبرت نفس الخضرة الكثيفة، وأبعدت الأغصان المتشابكة بنفس الحركة

الهلعة، وصعدت مأخوذا بتدفق الماء، وانهمار تلك الخضرة من علياء الجبل كما لو كانت هي الأخرى نبعا ظليلا. ومشيت مفعما بالعثور المفاجيء على بيوت منحوته في الطين والصمت، وشممت دخان الفجر، ودمعت عيناي لترتيل بعيد تلهج به أصوات مقرورة، وتبعتُ انهمار الماء منذ اتساع الوادي، حتى صار خيطا رفيعا يَكَادُ لا يبين بين أحجار الجبل.. ثم وصلت لتلك اللحظة القاسية التي يختفي فيها الوادي الأخضر والماء وأصوات الحياة، ويبدأ الحجر الصلد سلطته المطلقة على الحواس والأشياء. ورأيت نفس العصافير التي رأيتها وأنا على كتف والدي عصافير صغيرة مثل فراشات، ورأيت نفس الفراشات المخيفة، فراشات كبيرة مثل عصافير. فراشات سوداء وزرقاء وصلصالية. رأيت نفس النباتات الهشة التي تفلق الصخر بزهورها الدقيقة، ورأيت أسراب الغربان ذات المناقير الوردية أو الصفراء أو البنية، ورأيت نسورا وأفاعي، وثعابين، وصعقتني الريح في القمة مثلما فعلت قبل ثلاثين سنة، وفعل دليلي مثلما كان يفعل والدي: حفر بأصابعه تحت نبتة شائكة فاستخرج خيط ماء بارد شربنا منه مثلما تشرب العصافير.

وقال الدليل شيئا يشبه ما قاله والدي: إن الجبل لا يقسو على أحد أو لا يقسو إلا على نفسه. وملأني ذلك حبورا. ولكنني أحسست بصواب ما كرره والدي خلال تلك الرحلة ؛ أنني لن أعبر المكان مرتين. إنما الذي لم يحْدِسْهُ والدي هو أنني، ضد كل توقعاته ويأسه، سأعبر الحكاية مرتين. فقد

حدث لي منذ الخطوة الأولى أن وقعت من جديد تحت سطوة صوته. كانت كلماته تصعد نحوي كما لو أنني كنت لا أزال منذ تلك الطفولة البعيدة فوق كتفيه. وبما أنني كنت ماشيا، قدماي ثابتان صعدا نحو الأعالي، فقد كان الصوت يأتيني من أعماق الأرض، كأنني كنت أمشي في تراب الحكاية.

التقيت أول ما التقيت بأمي وهي ما تزال في الحكاية مجرد امرأة غامضة استحوذت بسواد عينيها على محمد الفرسيوي في دخلة عيساوة ببهو الشيخ الكامل بمكناس، يوم سابع عيد المولد النبوي. إمرأة وقعت في أسر نظرتها لرجل ضائع، فتبعته، حتى صارت حياتها في جوهرها مجرد سفر دائم بحثا عن الرجل الخائف ذي الصوت الرخيم. ورجل رأى ساعدا يدله على مكان الوضوء خلف ضريح الشيخ، فلم يبرأ من بياض تلك الإشارة حتى صارت حياته كلها مجرد انتظار لبزوغ شمسها الناعمة. والمرأة لم تكن سوى بنت يتيمة خف عقلها في دار الباشا حمو، من كثرة ما عذبها الشغل، ومكائد النساء، والشبق المؤذي لصبيان الباشا، فهامت على وجهها يسلمها بَرّ إلى بَرّ، وبَحْر إلى بَحر. والرجل لم يكن سوى فقيه دَوَّخَتْهُ الأحاجي وهشاشة سلالة أضنتها الهجرات والأحلام الموؤودة، فهام على وجهه بحثا عن سكينة. وستمضي سنوات طويلة من الاقتراب والابتعاد، تتقاطع النظرات والسبل، وتأبى المصائر أن تلتقي حتى أمر الله في أبهاء ضريح مولاي ابراهيم طير الجبال. كان محمد الفرسيوي قد نزل لتوه من الحافلة القادمة من مراكش فهرعت نحوه امرأة محلولة الشعر مخضبة

اليدين، ملفوفة في إزار أخضر فاقع وخبطت براحتها المفتوحة صدره وزغردت في وجهه حتى ظن أن الزغرودة الحادة قد جرحته.. فلما دخل للسلام على صاحب القبة وجدها هناك، محفوفة بالشموع والبخور وأصوات النساء المتوسلات، فكان ما كان: اكتشف والدي خبل المرأة وجمالها في نفس اللحظة.. فرضي بالمقسوم، وسعد به. كانا ينامان في الضريح، فإذا حاول مباشرتها أطلقت قهقهات رنانة تحت القبة فأيقظت بها كل الزوار.. وفي كل يوم كان محمد الفرسيوي يطلب من زوجته الرحيل كانت تقول: "بسم الله الى خلاني مولاي ابراهيم"، ولكن مولاي ابراهيم لم يخل سبيلها، بل ظلت مغلولة إلى ضريحه سنوات. وذات فجر رأت في منامها صاحب القبة يشير إليها فتبعت وجهه النوراني خلف المحراب، وهناك علمها بالكلمات والإشارات كيف تمضي إلى "سبعة رجال"، وكيف تسلم نفسها للفرسيوي، وكيف تكتم ضحكتها، وكيف تندس بجسدها في جلبابه، وتنتزع من شغاف قلبه تلك الكآبة التي خلفتها سنوات الأسر بالضريح، فكان ما كان.. عندما رجع الفرسيوي من العين التي اغتسل فيها بُعَيْد الفجْر وجد المرأة عند قارعة الطريق في المكان الذي تقف فيه حافلة مراكش، وخلال الشهور التسعة التي كنت أتشكل فيها في بطن أمي، كانت حياة الزوجين إقامة في التيه. يفيق أبي فلا يجد "المجذوبة". هكذا كان يدعوها لأنها بلا اسم ولا أصل ولا فصل. وتفيق المجذوبة، فلا تجد "الاقرع" هي وحدها كانت تدعوه هكذا، هي وأطفال "الحلقات".

يبحث والدي يوما كاملا أو بضع دقائق فقط، وعندما يعثر عليها تهش في وجهه وتقول ضاحكة:

. أديت العزري لسبعة رجال!...

وتبحث والدتي، يوما كاملا أو يومين أو أسبوعا كاملا، عندما يصل شهر رمضان، وتنام حزينة وتمتنع عن الكلام حتى يرجع الغائب.. ويرجع الغائب.. يرجع وفي عينيه لمعان من اغتسل لتوه في نبع ساخن.

فلا تسأله المجذوبة عن شيء. تنظر إليه بعينين واسعتين مثل عيني بقرة، فيفتح صرته ويناولها حبات التين الجاف الذي تشمس فوق سطوح بومندرة، وقطع الحلوى الملونة من بركة مولاي ادريس، وحبات الزيتون الأسود الناضج الذي شمسته هموشة قبل يومين، ويقبل جبينها ويديها ويسألها مبتسما:

. أش خبار العزري لله

تطلق المجذوبة ضحكتها الرنانة، وتحرر لسانها من أسر تلك الغيبة الطويلة أو القصيرة.

. كانت أمك أوليدي تكلم نفسها طوال الوقت، بصوت عال وتدفق سريع، ولكنها لا تفعل ذلك إلا في الزحام. أما عندما تكون وحدها فتمسك عن الكلام.

. واش عرفتي علاش أوليدي لله

كنت أسألها فتقول لي هامسة:

. بغيتي العزري يعرفني حمقاء لله!

ولعل والدي بكى في هذه اللحظة، أو لعله صمت فقط،

فمددت أصابعي نحو خديه، لأتأكد من ذلك. هذا ما أفسر به بياضا طويلا في الحكاية، لم ينته إلا على مشارف أحنبوب، في تلك المرحلة من الجبل التي ندير فيها ظهرنا لوادي تفنوت للمرة الأخيرة، فنرى عن يميننا العزيب الأخضر ووادي أوريكة. وقبالتنا تماما وادي إمليل الذي لن نصله إلا بعد خمس ساعات من المشي انحدارا كأننا نتدحرج نحو هاوية خضراء. هنا في مفتتح هذا الانحدار بتنا ليلتنا الأولى وهنا يعود صوت والدي، وهنا أيضا سألتقي بأمي في شهرها التاسع متجهة نحو مولاي ابراهيم، لأن طير الجبال وقف عليها في المنام، وطلب منها أن تمد له العزري ليؤذن له في أذنه اليمنى. وكانت أمي فرحة مثل فراشة خلال تلك الرحلة حتى أن محمد الفرسيوي رأى في عينيها لمعة العافية، وقال في نفسه إذا رد الله بها فسيأخذها لبومندرة، ويعيد معها تعمير تلك القرية الآفلة. وها هي الليلة الأولى في الضريح تسفر عن اضطراب كبير. تفيق المجذوبة هائجة وتدفع والدي نحو المنحدر، يسألها فلا تجيب ويمضيان معا في رحلة محمومة مليئة بالإشارات الربانية، حتى يصلا ذات يوم إلى واد ظليل ينسكب الماء بين يديه صافيا زُلاَلاً، وتعرش على أبهائه أشجار الجوز الضخمة. يستقبلهما رجل قصير خفيف الحركة ويصعد بهما إلى سقيفة تطل على الوادي، السقيفة دافئة مغمورة بخرير الماء والخضرة، والرجل القصير يقول ويعيد أن هذه هي امسوزارة وأمي لا تعرف كيف تنطق بالكلمة الأمازيغية فتضحك لذلك ضحكا متوترا مكتوما.. بينما لم يكن من عادتها ذلك.. كانت

تضحك طليقة فوارة مثل نبع غزير. وراح الرجل القصير ليحضر أواني الشاي، وظل أبي مشدودا لتِلك الضحكة الغريبة حتى أخرجته من ذهوله رنات الكؤوس في الصينية التي يصعد بها الرجل نحو السقيفة، ثم صرختي أنا مختلطة بضحكة أمي العالية.

في ذلك الهبوط نحو وادي أمليل يوجد بياض كثير في الحكاية، يرجع ذلك للحظات الصمت الكثيرة التي انتابت والدي بعد حديث مقتضب عن موت "المجذوبة" في نهاية ضحكتها، ويرجع ذلك أيضا إلى توقفاتنا الكثيرة بسبب ذلك اليأس الذي يجعل النازل المأسور في المسارات الضيقة التي تخاصر الجبل يقتنع أحيانا بأنه لن يصل أبدا.

عندما كان يحدث ذلك كان والدي ينزلني أرضا، فأحس بتنمل ساقي وقدمي..

أتذكر الآن أن الفصل كان صيفا لأن السماء كانت صافية وزرقاء حتى السواد. والضوء كان صقيلا، وأبي كان يتحدث عن رحلة شتوية قديمة هجم فيها الماء سيلا عارما من أعلى الجبل فلم ينج من الجماعة النازلة سواه. وهذا ما جعلني بعد ذلك ألتفت وراء باستمرار كلما توهمت سماع هدير قادم، وهذا ما نقش في ذاكرتي مشهد أحنبوب وهو يتمطط ويعلو خلف خطوات والدي، وأتذكر أيضا أنني رأيت النبتة الأولى بعد عبور سرداب طويل من الصخر الحاد، فقلت:

. شوف النعناع!

لأنني كنت آنذاك أقول "نعناع" لكل ما ينبت من

الأرض، فضحك والدي وأنزلني فوصلت إلى سمعي رقرقة ماء قريب.

قلت:

ـ الما!

ابتسم والدي راضيا.. أما أنا فقد كنت على وشك البكاء، بل إنني أجهشتُ به بعد انقباض طويل لا زمني منذ أدرنا ظهرنا لتفنوت. إذا جاز لي أن أتكلم عن شعور لا أعرفه لأنني لم أعرف أمي، فيمكنني القول إن إحساسي في تلك اللحظة كان مثل إحساس طفل انْتُزِعَ من حضن أمه. وأنا لا أعرف كيف يحس الناس عندما يلفظون هذه الكلمة: أمي. أما أنا فيمتلئ قلبي بذلك الوادي، أشم صدره الطيني وأدفن وجهي في عذوبة خضرته فَأُحِسُّ ريشا ناعماً يَلفني، وأماناً. وأعرف تفنوت كما يعرف الإنسان أمه: أعرف أشجارها شجرة شجرة، صعودا من امسوزارت يسارا عبر "تَكَاتَرْت" حتى النبع الأخير الذي يسلك لممر صخري يوصل بعد يباس بارد إلى بحيرة إيفني عند قدمي توبقال حيث اصطيد آخر أسد في منتصف هذا القرن، ثم يمينا عبر ايبراويني، آيت واكتن، تغبالوت، إنزار نيمكخا حتى الوقوف على قمة تيزي نتا غراضت ثم الانصراف يمينا نحو العزيب. أعرف الأشجار والمنابع، والسواقي والشذى، والأشكال التي تبتكرها الفصول. أعرفها عندما تكون صاخبة، وعندما تهدأ حتى تصبح مثل غيمة، وعندما تقسو أو ترق أو تكفهر، ووحدي سمعتها تبكي فخرجت في الليل البهيم وعدوت مذعورا من نحيبها. كان عمال الشركة الفرنسية يحزون

أشجار الجوز القديمة مساء، فأسمع صراخ عذابها وأسمع صيحة الشجرة وهي تهوي ويوجعني شهيقها، فأمسك عن الأكل أسابيع حتى تضع رأسي ذات صباح على صدرها وتطعمني بيدها المجروحة حبات التوت البري وأعشاب ينابيعها السخية.

في الليالي التي كان محمد الفرسيوي يأخذني فيها لِبَار السَّلام بالرباط، كان يحدث أن يترك جماعته في الكونتوار، ويصعد إلى الطابق العلوي حيث أجلس منفردا لطاولة مليئة بأصناف الأطعمة التي يأمر لي بها معارف الفرسيوي وأصدقاؤه، ويتكئ بيديه على الطاولة ويتفرس في وجهي لحظة ثم يسألني:

. واش عرفتي اميمتك أوليدي كي كانت لله!

تلفحني أنفاسه المخمورة فأشيح بوجهي. أجمع كتبي المدرسية وأهم بالوقوف فيجلسني بعنف:

. ما عارف والو!

. أهيا الشيطان المارِد، ما عارف والو، كتضحك عليا لله! كتضحك على بَّاك لله!

. ما عارف والو قلت ليك!

. أنا اللي حمق عاودت ليك كل شي!

. ما عقلت على والو!

. وعلاش كتبكي على تيفنوت لله! علاش كتحلم بها، علاش مصدعني تمشي ليها لله!

أحني رأسي وأقول هامسا:

. هاديك هيَ أمي!

ربما قلت ذلك مرتين أو ثلاثا غضب بسببها محمد الفرسيوي حتى كاد يقتل نفسه، ثم لم أعد أذكر له ذلك.. صرت أحني رأسي فقط حتى يلين وينصرف إلى جماعته فأظل شاردا أفكر بامسوزارت وبللها الفضي، ظلالها، وإشراقها الحاني، حتى يصلني صوت الفرسيوي في الكونتوار رافعا عقيرته بالإنشاد يخلط البُرْدَة والعاصمية وابن عاشر ومجموع المتون التي حفظها على يد الفقيه السِّي عبد الله أيام كان يمني نفسه بالانتقال من بومندرة إلى رحاب القرويين. تتعالى قهقهات أصحابه قصاصين وشعراء، يتلَهون بفقيه يضرب الطَّاسَة، ويحفظ المتون، ويعقد حلقته في جوطية يعقوب المنصور، أو العكاري، يحكي فيها قصصاً من ألف ليلة وسيرة ابن ذي يزن ويدخل فيها عناصر من سيرة والده الفرسيوي، أو من قصته مع المجذوبة. كل هذا مرَّ بسلام، أقصد أنني لم أكن فيه ضحية ولا جانيا. انزلقت في نهر الحياة وتركت الماء يدير جسدي حيثما شاء. عندما تعب الفرسيوي رجع إلى بومندرة، وبقيتُ في العاصمة مثل كل الناس الذين يعيشون حياتهم، يفيقون وينامون ويقتربون من نهاية مؤكدة دون أن يكون لهم إحساس خاص بأن ذلك يستحق أن يصير رواية. زرتُ الفرسيوي عدة مرات، مرات قليلة تنازلَ عن غيبوبته ليسألني ما إذا كنت أتذكر تلك الرحلة من امسوزارت إلى مراكش. وطبعا فقد صرت أتذكر كل شيء، منذ أعدتُ الرحلة مرة أولى وثانية وثالثة وكل

سنة حتى اليوم. كنت أدعي أنني لا أتذكر شيئا، فيبدي أسفه على أنني سأعيش بقية حياتي مثقلا بهذا النسيان. لكنني كنت أعرف أن كل اهتمامه بالموضوع هو فقط للتأكد كل مرة أنني لا أتذكر شيئا. لقد بقي في نفسه شك من أن يكون ما حكاه لي في تلك الطفولة الباكرة قد علق بذهني، وهو لا يريد أن يتقاسم مع أحد تفاصيل تلك المرأة التي عبرت حياته مثل حلم. عندما كنت أزوره ببومندرة كنت أسأله عن الناس والأمكنة وأستعيد معه كل تلك الحكايات القديمة عن الريف والهجرة والأموات والأحياء، مما كان قد حكاه لي ونحن في رحلتنا من امسوزارت إلى مراكش، فكان يغيظني أن لا يستغرب من احتفاظي بكل تلك التفاصيل، ويغيظني وهمه أنني لا أتذكر شيئا من سيرة والدتي، فكان ذلك يدفعني إلى الاعتقاد بأن كل ما كان يزعجه هو أن يعرف أهل بُومندَرَة حكاية تلك الزيجة الغريبة. أما هو فعندما كان يحدث له أن يطلب مني كتمان شيء من سيرته فإنه يصر على كتمان مرحلة الرباط. كانت مرحلة استقرار ثقيل على قلبه. فعل ذلك من أجلي، حتى أدرس كما كان يشتهي، لكنه اكتشف الخمر والمومسات فعاش عذاب تأنيب ذاتي دائم، يغالبه بالصلاة نحيبا كل فجر والبكاء بين يدي ترتيل الحاج عبد الرحمان بنموسى. كان الطقس كله يقلقني، ويسحرني أيضا: التسكع ليلا، والجلوس إلى طاولة سَخية ببار السَّلام، ومجيء النساء إلى البيت، نساء مختلفات يقبلنني بشراهة أو يغسلنني أو يعبثن بأعضائي متضاحكات صاخبات، حتى إذا تركنَنِي لعتمة الغرفة

وجدت نفسي مغمورا بنعومة لذيذة آثمة لا يعكرها سوى ما يجري في الغرفة المجاورة من هدير شهواني يقض مضجعي. حتى إذا استعادت الدار هدوءها وبدأ صوت البحر يصلني صافيا رتيبا، هَبَّ والدي من رقدته جزعاً، وحل بقصر البحر كله نحيب شجي تنهد له الجبال.

كل شيء مرَّ بسلام. أخذت كل وقتي في النمو، ببطء من لا يستعجله شيء.

أعيش زوبعة والدي كما يعيش الإنسان طقسا عاصفا من خلال نافذة. تدحرجت في المدرسة من فصل إلى فصل بلا تفوق وبلا غباوة. اكتسبت صداقات سطحية هادئة. نزلت للبحر القريب من بيتنا في قصر البحر، فلم أدهش لأمواجه أو لشطه الصخري. أدمنته إدمانا هادئا بلا عواطف، ولم يزعجني أبدا أن أتأمل وجوه الغرقى، كما أتأمل كل ما يلفظه البحر. كنت وما أزال أضع يدي في جيبي وأدفعهما نحو الأسفل حتى تتقوس كتفاي. كانت تلك طريقتي في التعبير عن هدوئي وكان ذلك يحررني من كل اهتمام زائد بالناس أو بالأشياء. كأنني أدخل يدي في ذاتي وأقفلها على نفسي بإحكام. وسَاعدني المناخ الليلي لوالدي على الدخول إلى عالم المرأة بلا صخب، وبدون عواطف مربكة. يخرج والدي فجرا، فتدنس إحدى مومساته جنبي، وتأخذني برفق، فأنقاد لها آمنا غير مستعجل، حتى نفيء معا إلى سكينة حالمة. وكان اكتشاف والدي لهذا الفردوس السري هو ما جعله يعود إلى بُومنْدَرَة. فعل ذلك بانفعال كبير، أما أنا فاعتبرت ذهابه أجلا طبيعيا في

مسارنا المشترك. مضى وبقيتُ: دخلتُ كلية الحقُوق بلا حماس، واحتفظت ببعض علاقات والدي بلا حماس أيضا، نساء تحولن إلى راعيات أليفات لمنزلنا بقصر البحر، ينظفنه، ويؤبن إليه في الليالي الصعبة، وتندس بعضهن في فراشي بدون مقدمات طللية، ولا شطحات إغراء. كانت الجامعة بحرا هائجا من الجدال. أما أنا فبقيت نفس الشخص المقَوَّس الذي يدفع بيديه معاً إلى أعماق جيبيه أو أعماق نفسه. شخصا بلا شغف على الإطلاق. ربما تحركت قطعة باردة في صدري إذا وصلت إلى أكويم، وانحرفت يمينا لأبدأ الصعود نحو تيفنوت، وربما انتفضت لحظتها مِن حنين أو من يتم أو من اشتهاء.. لا يدوم ذلك سوى لحظات قصيرة، أعود بعدها لوجودي الآسن، حتى تغمرني لذة من يشعر بنفسه جديرا بنفسه.

ثم حدث لي أن جلست لمحمد الفرسيوي وهو في لحظة إشراقة خاطفة أخرجته من ليله الطويل. كان ذلك ذات صباح موحش ونحن في باحة المصرية التي تطل على حوش الفقيه السِّي محند أوبنَّاصر حيث تجلس رقية مشلولة غائبة على دكانة الحوش، وحيث تتحرك نورية بجسمها النوراني. سألت والدي لماذا لا يرجع للريف، ولماذا يظل مستمرا في هذه القرية التي تموت، فأسَرَّ لي أنه لا يستطيع أن يترك هموشة وحدها، وأنه في كل الأحوال لا يريد الذهاب للريف مسافرا، لا يريد حافلة ولا طريقا ولا سفرا يحرك تلك البحيرة الثاوية في أعماقه.. لو يأمر الله مثلا فيغمض عينيه ويفتحهما فإذا هو في الريف، في "إغزار نبوضيرب" حيث توجد الدار الكبيرة التي انطلق منها

هذا التيه. كنت أعرف أن والدي لم يذهب أبدا، ولكنني كنت على علم بقصة إقامته الوهمية هناك، وكان كراسه الصغير الذي يتضمن الأسماء والأوصاف والوصايا ما يزال في الصندوق الصغير بقصر البحر .. وقد خمنت أن إعادة الحياة لتلك الأوراق الميتة سيعيد اليقظة لمحمد الفرسيوي، وربما استطاعت انتشاله من هذه الوهدة السحيقة التي استسلم لها.

هكذا بدأت أحدثه في كل زيارة عن محتويات كراسه، يلقط الخيط أحيانا فيروح مستحضرا وجوها ومصائر من الزمن الغابر، يعجنها بأزمنة أخرى مما أعرف ومما لا أعرف، ويتيه أحيانا أخرى، أو يذهل فلا تعني له الأمكنة ولا الأسماء شيئا. عند ذلك كنت أبذل جهدا خاصا لاستثارته فأعرض ما أعرفه من الكراس، أزيد فيه وأنقص، ليس عن رغبة، بل لأن صمته كان يُحرِّزُني ويجعل غيمة من الكلمات تهطل فوق لساني متلاحقة غزيرة لا تترك لي حتى فرصة الاندهاش من نفسي.

كان يترتب لي عن ذلك إحساس غامض، مزيج من اللذة والخوف والرغبة في اللعب، ولكن في خلفية ذلك كان هناك شعور واضح يغمرني من الداخل ويملؤني عنفا ومحبة، هو الشعور بالحاجة القصوى لعودة محمد الفرسيوي، الحاجة إلى استرجاعه من ذهاب أكيد.

هكذا وقع الكائن الذي تعود على دفع يديه إلى أعماق جيبيه أو إلى أعماق نفسه في أحابيل الأحاجي، وهكذا لم يعد كل شيء يمر بسلام.

XV

أنشئ المسجد التحتي لإقامة صلاة الجمعة، فأصبح بسرعة قبلة لكل دشور الريف في المنطقة، يقصدونه كل أسبوع، ويرسلون إليه أولاهم لِحفظ القرآن ويحيون فيه ليالي رمضان، وليالي عيد الفطر، وعيد الأضحى، وعيد المولد النبوي. يجلسون فيه لدروس الوعظ، ولحلقات شرح المتون، ويتعلمون فيه فرائض دينهم، ويطلعون فيه على سيرة نبيهم، ويعْقدون فيه الصلح، ويبيعون فيه المِلك، ويأخذون منه الفتاوي. مر بالناس في هذا المسجد فقهاء أجلاء، الفقيه السِّي عبد الله، الفقيه السِّي محند، الفقيه السِّي حدو، الفقيه السِّي بادي، وآخرون. ولكل منهم حكايات طريفة مع الطلبة، أو مع أصحاب الفتاوي، ولهم مآثر، ومواقف مشهورة، وواسطة عقدهم كان الفقيه السِّي عبد الله الذي حصل على عالمية القرويين فلم يقبل بالقضاء ولا بالعدلية مفضلا شرط الدوار، وحلقات الذكر، والجود بعلمه على من أقبل عليه من الناس. تقع عين تصبابت غير بعيد عن الجامع، في منحدر ينتهي

بأحراش شوكية تحيط بها أشجار التين والبرقوق الأسود. خيط ماء سخي يخرج من بين صخرتين ملساوين ويصب في حوض منحوت في صخرة بيضاء. في هذه العين يتوضأ كل طلبة الجامع، ويغسل الرجال جناباتهم فيها منذ شمس الربيع الدافئة، إلى حدود النسمات الخريفية الأولى. وحولها ظهرت للطلبة والعابرين الخائفين كائنات الليل المخيفة، فيها تعارف الإنس والجن ونسجوا علاقاتهم الملتبسة. وفيها أيضا جرَّب الأولاد أول ما جرَّبوا لذاتهم الآثمة. خلف الجامع صعودا توجد عين الحامة، وهي لا تسيل إلا بعد الشتاءات الممطرة الطويلة، فينزل ماؤها ساخنا كأنه كان على موقد. وهي عين آمنة لا أشباح فيها، تطل من مرتفعها الصخري الأبيض على واد الدشر، وعلى معصرة الزيتون العبقة. ومن مائها الساخن يتوضأ الطلبة شتاء وينظفون جلابيبهم الصوفية الثقيلة بأرجلهم في حركات رفس راقصة لا يتقنها إلا المهرة.

أما إذا نزلت حتى واد الدشر ومشيت شمالا بين نعناعه وتوته البريين، فإنك ستصل بعد عتمات الأحراش الظليلة إلى عين بَرِّي، وهي أعذب عين في المنطقة كلها وأكثرها نفعاً ودواء. يلجأ إليها الطلبة وأهل الدوار كلما ناوشتهم آلام المعدة، وأثقلت عليهم الولائم النادرة، أو نزلت بهم الحمى.

وحول هذه العين لا توجد مساكن ولا طرق، بل غابة زيتون وحدائق الكروم الآهلة بالأرانب وأسراب الحجل، والثعالب، والخنازير البرية. وفيها يجد الرماة ضالتهم عندما تشح الأحراش المجاورة للدوار.

إذا تقدمت شمالا فستصل حتما إلى أغرب العيون وألطفها. إنها "ثرى نتبقيين"، أي "عين القصاع"، وهي منابع على شكل دوائر صخرية تشبه القصاع تتوزع عبر مساحة واسعة مظللة بأشجار الزيتون والتين، لا يؤمها سوى الرعاة والعابرون نحو السوق، وربما أتتها نساء الدواوير المجاورة في يوم معلومٍ لتنظيف ملابس الدوار كله ونشرها على شجيرات الدفلى المحيطة بالمكان.

مرض السِّي محند أوبنَّاصر في تلك الجمعة المشؤومة التي انتظر فيها بمقصورته حتى مشارف العصر، فلم يكتمل النصاب لإقامة صلاة الجمعة. فصلاَّها رُباعية بدون خطبة، وبكى أثناء صلاته حتى ضجَّ الصف الوحيد الذي كان يصلي وراءه بالنحيب. ظلت الحمى تنخر عظامه أربعين يوما حتى أخذه الطلبة إلى عين بري التي استحم فيها فجرا، وعشية، وفي عز الظهر، فعاد إلى الحياة مرة أخرى وعاد صوته الرخيم يجلل غبش الصبح بترتيله.

في تلك السنة ظهرت الانتخابات القروية وحدث في الدوار لغط كبير لأن رجلا من ايزيدن لا يفرق بين الألِف والزّرْوَاطَة، تقدَّم بدون خجل لمنافسة السِّي محند أوبنَّاصر. وقد حاول الفقيه عبثا أن يقنع أهل بُومنْدَرَة بأن الأمر لا يستحق كل ذلك الغضب الذي استبد بهم، لكنهم تمادوا في سخطهم على الرجل وقاطعوه أثناء الانتخابات وبعدها حتى اضطر إلى الرحيل. أما الفقيه الذي فاز بالمقعد القروي بإجماع الناخبين تقريبا فسرعان ما عرف محنة حفرت أخدودا عميقا في

حياته، إذ ما أن انطلقت اعتقالات بداية الستينات حتى تلقفته الشرطة السرية ذات فجر وطوَّحَتْ به لتلك الأصقاع السحيقة التي لا يرجع منها إلا من أخذ الله بيده.

قرب عين بري، تقع حفرة كبيرة هي الحفرة التي يضحك لها الفقيه كلما جاء للاستحمام في العين، لأن تصريحه للشرطة بوجود أسلحة مدفونة هناك هو الذي تسبب فيها. لكن أغلب أهل الدوار يعتقدون أن فقهاء من سوس جاؤوا ليلا وعثروا هناك على كنز عظيم. وعندما سمع الفقيه هذه الرواية عند رجوعه من المعتقل، ابتسم ابتسامة خفيفة، وقرر أن يتركهم على اعتقادهم، وأن يعفيهم من تفاصيل تلك الليلة الرهيبة التي اضطر فيها للاعتراف بحيازة كميات ضخمة من أسلحة جيش التحرير دفنها تحت عين بري استعداداً للثورة القادمة!

لم يرزق الفقيه السِّي محند أوبنَّاصر بذرية من زوجته رقية، ولم يتزوج ابتغاء الخلف. ترجَّته رقية ذات فجر قائظ وه يتصب له الماء للوضوء أن يفعل ما يأمر به الشرع، ويودع نطفته رحما أخرى على سنة الله ورسوله، فأمرها بلهجة صارمة أن لا تعيد هذا الكلام على مسمعه أبدا. ثم قيض للزوجين أن يربيا نورية، فأحسا لذلك بسعادة غامرة لم يعكرها سوى المرض اللعين الذي أقعد رقية، وجعل البيت كله على كاهل البنت الصغيرة.

كان يزور الفقيه عالم من فاس، وهو رجل من أهل الله، متورد الوجه خفيف الروح، رشيق الحركة، عارف بأسرار

اليقين. كان ذلك في العهد الذهبي لبُومنْدَرَة، عندما كان الدوار يغلي بالفقهاء والمتصوفة والفلاحين المهرة. يتذكر السِّي محند أوبنَّاصر من المرحوم الحاج أحمد السقاط كرامات لا يرويها إلا نادرا، همسا، وباقتصاد كبير في التفاصيل، وتلك طريقة لاحترام تواضع الأولياء وتعففهم، حتى إذا استغرب أحد لما سمع أو استعظمه قال الفقيه مبتسما: "اتق الله ترَ عجبا!".

كلما جرى ذكر الحاج أحمد ذكر الناس نوادر متعلقة بمقامه بينهم، في دوار لا يتكلم فيه الناس سوى تَارِفِيت، وقليلا من الدارجة الملتوية إذا اضطروا، فيأتي ذكر كل الذين كانوا في تلك الفترة بالزاوية الدرقاوية، أو بباحة المسجد التحتي. يذكر الفقيه سجالاتهم في الفرائض والقراءات، ومآدبهم، وجلسات الشاي والذكر والسماع، لكن كل تلك التفاصيل التي تستغرق حياة بأكملها لا تكفي حتى لملء ورقة.. لأن المساحات الأساسية في حياة هؤلاء هي مساحات الصمت والتأمل، مساحات التحليق الهادئ لكائنات فرحة، قنوع، تمضي نحو نهايتها بعذوبة لا تعكرها عجلة ولا خوف ولا طمع.. يلتقون بعد غياب، فتدمع عيونهم، ويقولون اللهم اجعل المحبة لله، ويفترقون فتدمع عيونهم ويقولون: نحن على عهد الله. يلتقون في أحلامهم كما في يقظتهم: إذا مرض الحاج أحمد في فاس رأى الفقيه السِّي عبد الله ذلك مناما وتكدَّر له، وإذا اشتهى زيتونا بعث الله إشارة بذلك لِمنام السِّي محند، فلا يطلع الفجر حتى يكون في طريق "زكّوطة" ينتظر المركوب إلى فاس يحمل لأخيه في الله سلة الزيتون كما

اشتهاها. فإذا دخل عليه الدار الكبيرة في البطحاء ضحك الحاج أحمد حتى استلقى على قفاه ابتهاجا لهذا التوارد الرباني. وقال في غمرة السعادة التي أغدقها عليه ذلك التوارد إن الأرواح تتلاقى، وليس النوم سوى موت صغير يحرر الروح من قفص الجسد ثم يتلو قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الزمر: 42].

هذه هي المحبة ..

المحبة التي تغمر الوجه بانخطاف آسر، وتجعل النظرة إذا التمعت مزيجا من نار وماء.

إذا قدر لأحد أن يدرك هذا المدى فلا خوف عليه، لأنه يعود إلى غلالة الرحم التي خرج منها، ويصبح محفوفا بالأمان الأبدي لا يعرف من هشاشة البشر سوى الرغبة في الحياة.

يبتسم السّي محند أوبنّاصر عندما يريد اختتام الحديث في هذا الموضوع ويحكي قصة لها علاقة بسلطة المحبة:

مضى مرة إلى فاس لقضاء بعض حاجاته وكان مستعجلا فأسر في نفسه أن لا يزور الحاج أحمد. وَإذْ أذِّنَ لصلاة الظهر اندسَّ في صف المصلين بمسجد القرويين وانقطع كما هي عادته عن كل أمور الدنيا وهواجسها، حتى إذا سلم من صلاته امتدت نحوه يد بالسلام ولم يكن الشخص سوى الحاج أحمد بنفسه.

أثناء مغادرة القرويين قلت للحاج أحمد:

. أنا غادي نروح ألحاج!

فرد الحاج بصوته الناعم:

. إلَى خَلاَّتَكْ!

يقصد المحبة طبعا. فوالله لم يرفع السِّي محند أوبنَّاصر عينيه بعدها في وجه الرجل حتى فجر اليوم التالي عندما أذن له بالرواح!

تزوج الحاج أحمد بفاطنة بنت محند أوعلاَّل فخلف منها أربع بنات وولدا .. كانوا جميعا فاسيين بعيونهم الزرق وبشرتهم الحليبية، ولكنهم كانوا يشقشقون بالتَّارِفِيت كأنهم من بني ورياغل. وقد مات منهم من مات في زمن التيفوس، وبقيت بنت واحدة تزوجها تاجر من فاس فانقطع أثرها من بومندرة. وكان الفقيه يذكر موت الحاج أحمد فيترحم على الخو، المجذوب الذي كان مقيما في غرفة معزولة بسيدي راشد خلف ضريح مولاي ادريس، وكان قد رأى الحاج أحمد مقبلاً نحوه فأشار بيده للجبل المطل على المدينة حيث توجد المقبرة وصاح بصوته الجذلان:

. راه محلك ألحاج، راه فين عيطلك التراب!

وكذلك كان.

في مرضه الأخير أوصى الفقيه السِّي محند أوبناصر بإحضار أحد طلبته القدامى وكان يمسك شرط دوار كرمت، لكن الرجل الوحيد الذي كان قادرا على القيام بأعمال من هذا النوع، وهو أحمد ولد محند سلام، لم يكن موجودا بالدوار.

ذهب ذات يوم للسوق فلما كان المساء رجعت بهيمته بلا أحمال ولم يرجع هو أبدا.. كانت هموشة قد رجعت من زيارة للفقيه، فاقتعدت حجرا في فناء الدار وراحت تبكي وتعدد أسماء الهالكين:

شكون أدِ يقبلك الفقيه.

شكون أدِ يغسلك الفقيه.

شكون أدِ يحشرك الفقيه.

شكون اللي أدِ يقرا عليك الفقيه.

شكون أدِ ينوضك من القبر.

أيقظ النواح الفرسيوي، فهب من ذهوله ملسوعا. أطل من السقيفة وصاح بالعجوز:

. سكتي أمُوكًا الله يقطع حسّك!

ثم اتجه صوب الغرفة القديمة التي لم يدخلها من سنوات، فأخرج الفرجية البيضاء، وجلباب الحبة، والبلغة الصفراء، واتجه بأقدام ثابتة نحو تصبابت حيث اغتسل وتوضأ كما كان يفعل أيام زمان، بتركيز شديد، وحرص أشد على الدلك والفور، ثم اتجه نحو الجامع التحتي. دفع بابه المتداعي فانفتح في سحابة من الغبار وزعيق الوَطَاوِط.. صلى على الحصر المنخورة بالسوس، غير عابئ بوحشة المكان. كان يصلي في مكان لا يوجد إلا في ذاكرته، مكان بارد نظيف آهل بالأذكار، والتراتيل وأصوات الطلبة. وعندما غادر المسجد لم ينس إغلاق الباب والمرور على المقصورة قبل الذهاب إلى

كرمت لإحضار الطالب المعلوم وهو يتعجب من أن الفقيه لم يكن موجودا في المقصورة قبيل العصر. والآن ها هو الطالب عند رأس الفقيه ومحمد الفرسيوي عند قدميه ونورية واقفة متكئة بظهرها للجدار، ورقِية في دكانة الحوش لا تعي ما يحدث حولها.

طلب السّي محند أوبنَّاصر من الطالب تلاوة سورة يس، فانطلق وحده في البداية، ثم صدح صوت محمد الفرسيوي عند قوله تعالى: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [الملك: 13]. ابتسم الفقيه لنورية وابتسمت له، أغمض عينيه واستغرق في التلاوة بصوت واهن حتى نهاية السورة، ثم طلب قراءة سورة الملك فقُرِئَتْ، وسورة الرحمن، ثم سورة القيامة، وعند نهاية هذه السورة استدار الطالب ليعرف طلبات الفقيه فوجده هامدا..

استدار نحو نورية فرأى دمعتين كبيرتين تغسلان وقفتها الصامتة.

XVI

جاء الناس من دواوير ظهر الخلف، دكارة، دندانة، ظهر بن عبد الله، سيدي موسى، بني مرعاز، كرمت، عين السِّي عمار، جعادنة ومن دواوير أخرى في جبال زرهون، لأن محمد الفرسيوي ظل الليل كله يطوف على المداشر حاملا نعي الفقيه السِّي محند أوبنَّاصر، الذي وافته المنية بين المغرب والعشاء. كانت جنازة رهيبة لم يجتمع فيها ببُومنْدَرَة مثلما اجتمع ذلك اليوم من الخلق. وقد اعتبر الناس العارفون أن في موت الفقيه فجيعة لا تشبهها فجيعة، وقال أحدهم مخاطبا جموع المشيعين، وقد نزلوا من المقبرة، بأن عليهم منذ اليوم أن ينتبهوا لأرزاقهم وأولادهم فقد ذهب الله بالسيف النوراني الذي كان يرد عنهم الغوائل فأمنوا على قوله سرا وجهرا، ومنهم من انتحب من جديد متذكراً أن بركات الدعوات السخية التي كان الفقيه يزجيها لمن قصده قد توقفت، وأنهم أصبحوا عراة إلا مما يسمح به الحذر، أو المكر، أو عناية الله الخفية.

مساء ذلك اليوم قررت حادة أوعكّي، وكانت قد وصلت إلى أرذل العمر دون أن يصيبها وهن ولا خرف، أن تلزم بيتها حتى تموت. قالت ذلك لهموشة، فضحكت، وقالت إن ذلك يكون ممكنا عندما تكون الدنيَا تغلي خارج البيت، أما الآن فليس سوى الخواء سواء لزمت البيت أم هجرته!

ومع ذلك دخلت حادة أوعكي تحت غطائها الصوفي وقررت أن لا تخرج منه إلا إلى قبرها، هذا إذا وجدت من يدفنُنِي، قالت في نفسها، واستسلمت للتهاويم والأحلام. كانت تلتقي بالأموات في منامها فتأخذ معهم في أحاديث وخصومات تفيق منها دائما في غاية الرضى.. وتظل لساعات طويلة تفك ألغاز أحلامها بمتعة من لم يعد يرهب شيئا. في الأسابيع الأولى كانت تقوم أحيانا قليلة لقضاء حاجتها ثم أوصلها الصوم الكامل للانقطاع نهائياً عن ذلك، فلم تعد تغادر غطاءها الصوفي. وعندما امتد بها الحال وقتا طويلا اكتسبت دربة دقيقة في إدارة إقامتها المسبقة في الموت، فكانت تنظم إغفاءاتها، وتهيئ ما ستقوله لفلان أو فلانة، ممن يزورونها في الأحلام. وصارت إذا شاءت استيقظت، وإذا شاءت ذهلت، وإذا شاءت أغفت. ووصلت في انفصالها عن جسدها حدا لم تعد فيه أسيرة لأي سلطان. كان يحدث لها أن تتذكر الأكل والشرب كما يتذكر الإنسان نفسه طفلا يجري وراء متع اللعب، فتأخذ في مضغ الهواء لفترة طويلة، فقط، لتحس بمتعة تلك الحركة، حركة الفكين واللسان والشفتين، وقد أصبحت حركة خالصة ولذة في حد ذاتها.. ثم لأمرٍ ما صارت

تتذكر كل حركات جسدها القديمة بما في ذلك تلك الحركات العنيفة التي كانت تزلزل حوضها عندما يدخل علال بين فخذيها، فتندفع نحوه بهز متوتر تتألم له حتى نخاع اللذة. فكان هذا الاستذكار اللطيف يبعث نسمة ساخنة تهب على أسفلها فتمد يدها هناك وتضغط ضغطا خفيفا مترددا.. ورأتها هموشة تفعل ذلك فوضعت ظاهر كفها على جبهتها وماءت هِيء ... هيء ... هيء ... هيء، "مانا ثمشو نتا أعباد الله!"(*) أما حادة فأدارت وجهها للحائط ودخلت بمحض إرادتها في إغفاءة هنيئة.

كانت هموشة تقضي أغلب أوقاتها جالسة قرب سرير حادة تَسْتَدْرِجُهَا للكلام، وترفل معها في حدائق الماضي، بانغمار كامل في الأحداث والعواطف.. الصمت مطبق بأجنحته البيضاء على بومندرة. وحدها تهاليل محمد الفرسيوي تبلل من حين لآخر ذلك الوجه الجامد لمكان مأسور في تجاعيده، وعواء المبروك، عندما تهل عليه نورية بالطعام ظهرا.. عواء ممزوج بقهقهة مضطربة، ثم أنين ممتن متقطع، كحيوان يزحف على بطنه خلف خُطى صاحبه. أحيانا، تأخذ نورية معها قماشا وماء دافئا، فتمسح وجهه ويديه بعناية عذبة يجهش لها المبروك، حتى ترد عليه العصافير في أوكارها، والثعالب وأسراب الحجل في مكامن الأحراش والدوالي العشوائية. صمت واستفاقات غير محسوبة، وجذل رقيق يهدهد الأشياء والكائنات، كأن الكون مقبل على خلق جديد. يعلو صوت حادة أوعكِّي مجادلا فترد هموشة بلهجتها السريعة، وتمضي

بينهما المشاحنات كل مذهب حتى أقصى المودة أو حتى أقصى الضغينة.

"الفقيه وضع يده في النار فكانت تطقطق كالحطب اليابس وهو يبتسم جذلانا.. حتى شمت زوجته رائحة شواء غريب فهرعت نحوه وأبعدته عن الكانون.. لا، الفقيه كان نائما قرب الكانون فزحفت النار نحوه وشبت في كم جلبابه.. نجمة كانت مومسا في زمور، نجمة كانت ولية من أولياء الله، دخول الفرسيوي بزوجته الثانية كان في رمضان، رمضان لله بل كان في شيع العاشور. يامنة "ثقفها" الفقيه بنعيسى، لا، الفقيه السِّي علال من بني مرعاز، أختها خديجة هي التي رأت في "المحلة" مكان الثقاف، جذع الزيتونة البرية قرب عين تصبابت، بل أختها يامنة هي التي رأت ذلك، فتزوجت فاطمة وحلت اللعنة بيامنة، العام الذي هجم فيه التيفوس على الدوار تزوجت فيه فاطمة، ولم تكن بكرا ولكنها كانت مثل سبع، عندما رأت زوجها يهم بالقيام عنها فتحت سكينها "بونقشة" وأمسكت بذكره مهددة "مَاجا تَسْخَذْ الدَّم أشْ أوْيَخْ الدَّمْ!"(*) هيء، هيء، هيء الله يعطيها الصحة. متى اختفى الفرسيوي مع الجنية، الجنية لله الجنية هي بني آدم، تزوج في الريف والسلام، ومحمد الفرسيوي ألم يتزوج جنية هو الآخر لله كيف يلد الرجل من جنية وَاشْ حْمَقْتِي لله ومن خطف عقله إذا لم تكن الجنية، خطفه السحر والجري وراء الكنوز والنساء،

(*) يا لهذه الماكرة يا عباد الله!

إيوا مسكين لا والي ولا تالي..، المسكين لا ينظر إلى البنت نورية ويده في حجره ولسانه متدل مثل ثور هائج.. هو لا يفعل ذلك، بل يفعله.. وأنت منذ دخلت بيت الفرسيوي تحسبينهم مثل السلاطين، الفرسيويين لله مالهم لله! لفحولة دَ الريف هم الفرسيويين، "آينوغ ذايم"(*)، وأنت يا حادة ألم تطيري وتنزلي لتتزوجي الفرسيوي لله ولكن، أنت ذهبت معه لبيت التبن وتركته يفعل فيك حتى شبع. ولولا الفضيحة ما دخلت بيته أبدا...".

يعلو جدال العجوزين حتى يسمعه محمد الفرسيوي من سقيفة المصرية فينزل صوب دار حادة، يعتلي سطحها المترب ويصرخ:

. أياك لا باس الفقيرة!

فتنهض هموشة وتبدأ زحفها وهي تئن: ها أنا أوليدي، الله ياخذ فيك الحق أحادة نجمسخ ايدجيش نجفيظحث!(**)

لكن هموشة كانت تعود في اليوم التالي، تعبر الفناء وقلبها يخفق بشدة حتى ترى حادة وقد استدارت لاستقبالها، فترمي عصاها عند الباب، وتقرفص سعيدة.

أحيانا تصاب حادة بنوبة أسى مفاجئة فتبدأ في تعداد محنها، من يوم ذلك الزواج المنحوس حتى الآن. تذكر مرضها الطويل الذي أقعدها عشر سنوات "لا يدين لا رجلين".

(*) إذا أردت الدم أجيئك به.

كان ذلك من الجن وعين بني آدم. تسألها هموشة متعاطفة: وهل كنت قبلها تعطين الراحة لعظامك لله أين هي المرأة التي تطحن مدين من الشعير قبل طلوع الشمس وتغربل وتعجن وتأخذ للزاوية الدرقاوية قصعة كسكس لا يهزها سبعة رجال، أين سميد حادة، وغزلها وسمنها لله الله يلعن من يثق في الدنيا!

ترد حادة بحديث مسهب عن الصحة وقصتها مع "الارياح" الذين كتفوها عشر سنوات. كان ذلك أيام البون وزوجها كان يبيع الغاز، والسكر، ويهرب السلع بين جبال زرهون وزمُّور. ويأتيها ليلا وهي كمشة "لا يدِّينْ ولا رجْلِينْ"، فينحشر بين فخذيها المتصلبتين ويأخذ في مباشرتها ورائحة الغاز تعطي منه حتى كان أن ولدت فاطمة، وحدو، وهي على تلك الحال.

تضحك هموشة وتحلف أنه لو لم يبق لحادة سوى فرجها حيّاً لأقبلت به على من يطلبه.. وهذا ما ضحكت له حادة ضحكا واهنا انتهى بما يشبه النحيب، ثم اعترفت لها ببساطة وبلهجة متوسلة بأنها ضاجعت الفرسيوي قدس الله عظامه في الجنة أيام كانت تطمع في الزواج منه: وها هي تطلب المسامحة من هموشة، وهي على فراش الموت، وهموشة تدق بعصاها أرض الغرفة العطنة تصرخ ملء جسدها الصغير..

(*) شتيمة.

(**) شتيمة.

فكانت تلك واحدة من أعنف المشاحنات التي شهدتها بومندرة، حتى أن المبروك نفسه اهتز لذلك وخرج من الحوش كما لو كان يهرب من زلزال عنيف، ولولا نورية التي تبعت عواءه حتى مشارف الخندوق، وأمسكت بتلابيبه لرمى بنفسه في الوادي السحيق.

كانت هموشة تكره حادة من عند الله، وخصوصا لما دأبت على ترويجه من روايات تخصها:

الرواية الأولى عن اختفاء الفرسيوي، الذي تقول عنه إنه كان مجرد إقامة في الريف مع امرأة أخرى خلف منها ثلاث بنات. حدو هو الذي أتى بالحكاية من الريف، فتلقفتها أمه وصارت لا تفتر عن روايتها. والرواية الثانية عن الفضيحة المزعومة التي جعلت الفرسيوي يقبل بها زوجة رغم أنفه. والرواية الثالثة عن تشنيعها بالمجذوب والادعاء الكاذب بأنه يمسد ذكره وهو ينظر إلى نورية تغسل قدميها في الحوش. لو كان بيدها لاقتلعت لسان حادة من الجذر وشَوَتْهُ، أما الآن وقد طلبت منها المسامحة لأنها أعطت فرجها للفرسيوي فهي تتمنى لو كان ما يزال فيها الجهد الذي يسمح لها بشيٍّ المرأة كلها وإطعامها للكلب الوحيد الذي ما يزال على قيد الحياة في بُومنْدَرَة.

بعد انقطاع هموشة عن زيارة حادة صار محمد الفرسيوي يصعد لسطح منزلها كل صباح يناديها بصوت مضطرب. وعندما ترد، ينصرف إلى حال سبيله محوقلا.. لاَ يقتِل سوى الأجل يا سيذِي! أما قبيل الغروب فنورية هي التي تفعل ذلك. تسأل من

السطح فتجيب حادة بصوتها الواهن، وبما يشبه الغضب "أقاي عاذ أداخ"![*] كانت حادة تبتسم كلما سمعت النداء، وكم مرة احتفظت ببسمتها الساخرة وأحجمت عن الرد حتى يتغير صوت المنادي، ويصبح مزيجا من عصبية وتوجس. عند ذلك ترسل صوتها إلى السطح مستنكرة قبل أن ترجع للاستقرار في غيمة انتظارها.

لا شيء في تلك الغرفة العطنة كان يشد انتباهها. تتساقط قطع الطين اليابس من السقف، وأوراق القصب القديم، وتمر عقرب فوق جيدها اليابس، تعرف من دبيبها البارد الثقيل أنها العقرب السوداء ولكنها لا تعير لذلك أي اهتمام حتى تراها منصرفة عن جسدها، متسللة كالخائفة، وربما سرها ذلك، إذ تذكرت أن القمل نفسه لا يجرؤُ على البقاء في جسد آيل للموت.

لو كانت فيها بقية من قوة لاتجهت صوب الصندوق المركون خلف الخابية الخاوية وأضرمت النار في محتوياته التي كدستها هناك منذ دخولها لهذا البيت، ومنذ تلك الأيام التي كانت فيها بومندة تعيش على إيقاع الزيارات الصيفية لأصحاب الخارج: حلي من الفضة القديمة، حسكة نحاسية، بقايا عقد من موزونة، "المطبوع"، علب أدوية فارغة، زجاجات عطر، وعقود بلاستيك، ولاعة من الفخار أو القش، أحزمة، وعلب ند، وكفن جاء من الديار المقدسة على يد الحاج أحمد رحمه الله. كان حقدها على الصندوق يرجع إلى ارتباطه بدخولها لهذا البيت الذي يأوي اليوم نهايتها الطويلة.

ظلت لسنوات ترى غلافه المخملي الوردي المرصع بدبابيس نحاسية على شكل أقواس وقباب ودوائر متداخلة كما رأته أول مرة على ظهر الحمار الأشهب الذي حمل جهازها إلى بيت الزوجية. وكأنها هي نفسها كانت داخل ذلك الصندوق وليس في "العَمَّارية" المزينة بالسبنيات وأغصان الزيتون.. كأن قدرا ظالما زَجَّ بها هناك ليصرفها نهائيا عن الغواية اللذيذة التي تقطر من عيني الفرسيوي. كل هذا العمر، لم تضع حادة شيئا في الصندوق إلا كان ذلك بحركة عنيفة قاسية، مشحونة بكل رغبتها في دفن الشيء إلى الأبد، كأنها تعلن بتلك الحركة المتوترة التي تلقي بها الأشياء في عتمته نهاية مرحلةٍ من حياتها، أو كأنها تريد أن تدخل كينونتها قطعة قطعة في هذا التابوت الوردي القادم من زفاف سحيق. وها هي اليوم تتمنى لو تستطيع إضرَام النار في الكينونة كلها، خشبا وجسدا وكنوزا منذورة للنسيان، ولكنها لا تقوى إلا على اشتهاء ذلك، من داخل غطائها الصوفي الذي نخرته الأرضة فأصبح مجرد طبقة واهية من غبار غَيْمَيٍّ يلف ما تبقى من جسد هامد تتراقص الروح في خوائه مثل بذرة طليقة داخل ثمرة يابسة.

وقد سمعت هذه البذرة ذات صباح بارد بعد مرور سبعة أشهر من هذا الاحتضار الطويل نداء من السطح فأرسلت بسمتها وراء النداء. وسمعت إلحاح النداء، ثم خطوا مستعجلا يعبر السطح، ويقفز لفناء الدار، وسمعت توقفا؛ ثم نداء

* ما زلت على قيد الحياة.

بعيدا، وخطوات متأنية مزيجا من توجس ورهبة، ولعلها رأت ظلا كبيرا يملأ فتحة الباب، فتوقعت عبور الظل لتعود الفتحة المضيئة إلى مكانها. لكن الظل الدامس ظل هناك، كثيفا باردا، كأن يداً أقفلت الصندوق على الكينونة، وطوحت به للأعالي.

XVII

ذات عصر من أيام أبريل الظليلة، سمع محمد الفرسيوي صوت إناء يسقط في فناء البيت، فقال في نفسه إن هموشة ستكسر كل أواني الفخار قبل أن تنكسر تلك الآنية الهشة التي تضم روحها. لحظتها وصلت إلى خياشيمه رائحة الطين المعلومة، ليس الطين الطري المعجون، ولا الطين الخارج لتوه من الفرن، بل ذلك الذي كانت تدعسه هموشة بصخرة كبيرة لتقوي بمسحوقه الناضج عجينها الجديد. كانت تدفع الصخرة، وتجذبها دافعة "بشقوف" الآنية القديمة إلى المساحة التي تحكمها هذه الحركة، فينبعث من ذلك عبير لذيذ يطرب له الطفل المقرفص هناك تحت شجرة التين. وقد بعث هذا الشذى ما يشبه النار في هشيم الذاكرة فإذا المسافة الممتدة بين تلك الجلسة الطفولية الحالمة وجلسته المتوترة الآن في ظل السقيفة، تلوح على ضوء هذا الاشتعال السريع صفحة شفيفة. سيتوقف الفرسيوي في أبهائها عند تلك الحفلة الرقيقة التي

تقيمها النساء في البيت الكبير كل خريف، أي في ذلك الفصل الذي يتغير فيه الضوء فجأة، كأن الأشعة نفسها ستسقط ذابلة مثلما تسقط أوراق التين والكروم.

النساء يتسابقن بين الفناء المزدحم بالأواني النيئة، وفسحة الدار الخلفية، وهو لا يأبه لتلك الجلبة، بل ينصرف بكل التذاذاته المتوترة إلى مشهد الفتاة التي تقف في العجنة البُنية اللزجة رافعة ثوبها الداكن عن ساقين ورديين مشدودين في قبضة الطين. تدور الفتاة بتؤدة في الدَّائرة، ساكبة من حين لآخر قليلا من الماء عند قدميها، فيحدث ذلك لرفْسِها أصواتا غامضة الإثارة. يظل على حاله منبطحاً يتأمل هذا المشهد الرقيق حتى تستوي العجنة، وتخرج منها الفتاة بساقين يشْتَهي أن يعبث بهما بأصابعه، بل يشتهي أن يلحسهما قليلا ليذوق طعم الطين، وطعم تلك البشرة الوردية. ولكنه لا يجرؤ على ذلك، فيمد يده للعجنة ويأخذ منها بأصبعه قطعة صغيرة، يضعها بسرعة على لسانه، ويتركها تذوب كقطعة سكر، يديرها بين لهاته وأسنانه، ويملأ خياشيمه برائحتها النزقة. كانت لذة صغيرة بريئة، يقترفها سعيداً، وهو يرى نساء القرية يتبارين لملء الفرن بأحلى الأواني: قصاعٍ، ومحالب، وأقداح، وصحون تتدرج خلال اليوم الواحد، من لون التربة البني الفاتح، إلى البني الغامق بعد عجنه، ثم الرمادي الغامق الذي يصبح أبيض غائما بعد تعرضه لأشعة الشمس، ثم اللون الفخاري المبهج عند الخروج من الفرن. ألوان نباتية، جسدية، قمحية، وروائح رحمية، عشبية، مطبخية. أشكال مقعرة،

مسطحة، أسطوانية، مقوسة، مفتوحة أو مغلقة. مسافة يوم واحد يشبه يوم الخليقة الأول، يوم العجنة الأولى التي خرجنا منها كتلة من الرقة والعنف. كان محمد الفرسيوي، بعد اطلاعه على قصة الخلق في القرآن الكريم، ينظر لتلك الحفلة الخريفية بعين المتسائل الحكيم، ولكن دائما بعين المراهق الذي يلحس البشرة الوردية في نفسه وهو يحسها تخرج نيئة من حوض العجين قبل أن تنتفض وقد دبت الروح في بللها الشهي.. وربما اشتاق مرة أخرى إلى مَدٍّ لسانه لجدار السقيفة ليصيب من طينه المالح، اللامع بأعواد التبن الفضية. سيحس لحظتها بمغص خفيف أسفل بطنه، كذلك الذي كان يعصف به في جوف الليل فيَصدر عنه أنين متقطع تهب له هموشة من نومها. كانت تقول للفرسيوي وتعيد بأن أحاجيه هي المسؤولة عن تكسير الطفل. تشير بأصبعها إلى رأسه الكبير وبطنه المنتفخ وصفرته الشبيهة بأحشاء الأرض، أهذا هو الطفل الذي لم يخرج من بطن أمه حتى استل روحها لله!.. من طلوع الفجر وأنت تصب في مخه الصغير أحاجي العفاريت واللصوص والسحرة والمجاذيب، وأنا مثل البلهاء أطوف به على السادات والأولياء، وأعلق التمائم، وأمحو له غابات من الحروف ليشربها على الريق، وفي كل الأوقات. تقول ذلك وتشير بأصبعها المدبب إلى الولد المتأهب للبكاء، والولد يحرك لسانه بين لهاته وأسنانه موزعا طعم الطين على تجاويف فمه، لا يقلقه سوى شيء واحد: أن تكتشف هموشة شغفه السري، وتكتشف معه الجدران الأربعة لبيت التبن القديم، وقد أصبحت حجارة ملساء صقيلة، بعد أن

لَحِس محمد الفرسيوي كل طبقات الطين التي تراكمت عليها جيلا بعد جيل.

يعد الفرسيوي على أصابع يده ما تبقى من أواني الفخار ويؤكد لنفسه بصوت عال إنه الحلاَّبُ مَا وَقَعَ من يد هموشة قبل قليل، الحلاب المزوق "بدبيب النمل" كما رسمته نورية مستعملة مداد نبتة الدرو العبقة.. يا للعجوز الرعناء: أكان لابد أن تشرب في هذا الإناء العتيق بالذات لله!

ثم هبت على قلبه دفقه حنان تجاه هموشة، هذه الكمشة الصغيرة التي تغطي وجوده كاملا، منذ نزل من رحم أمه حتى اليوم.. لتكسر ما تشاء يا سيدي، عندما تنقرض أواني الفخار سنستخرج علب الأواني الرومية التي جاءت من ألمانيا وبلجيكا ومراكش والدار البيضاء، وظلت مركونة في الوضاية تنتظر الأيام التي تذهب وتجيء. هموشة تقول إنها آنية ترشح برائحة البنزين، وهي الرائحة التي لم تنسها أبدا منذ ركبت "البلاصيانا" في رحلة خاطفة إلى مولاي عبد السلام طلبا للذرية.. كانت ترفض الأكل في صحون الخارج، لأنها كانت تعتقد أن نساء النصارى لا يتوضأن ولا يغسلن أقدامهن وأظافرهن المصبوغة قبل مباشرة الفخار. وعندما أخبرها الفرسيوي بأن النصارى يصنعون أقداحهُم وصحونهم في آلات كبيرة تشتغل بمحركات مثل محركات "البَلاَصْيَانَا"، صارت تشم في كل تلك الآنية الجميلة رائحة بنزين نفاذة... أرسل الفرسيوي بصره من السقيفة باحثا عن نورية فرآها تنزل بعد قليل بسطل الماء الصافي ومنديلها الأبيض على كتفها، متجهة صوب المبروك.. قال لها بغضب كأنه يخاطب نفسه:

. أو لله وخا تدوزيه فالمكنية!

ثم ندم على قوله فورا.. وتمنى أن لا تكون قد سمعته، وهو ما تهيأ له عندما رفعت وجهها النحيل صوبه وحيته بابتسامة سخية، لا أثر فيها لأي عداء. لماذا كل هذه البراءة يا رب في محفل خرابٍ دامس لا يلتمع فيه حتى السراب لله! سيصله بعد قليل عواء المبروك وتصفيقه الجذلان وهو يرى نورية مقبلة عليه، ثم سيصله أنينه المكتوم المتلذذ، فيعرف من ذلك أن الفتاة قد بدأت تجيل أصابعها ومنديلها البليل، عبر التلافيف البلهاء لوجه المبروك. سيمر وقت مبهم في كنف هذا الطقس الجلي والخفي، تهجم فيه على الفرسيوي هواجس شيطانية، تجعله ينط من السقيفة إلى سطح الدار، ثم تنزل عليه سكينة باردة عندما تطالعه الحقول المهملة وقد علا عشبها البري حتى غطى جذوع الزيتون، فينصرف إلى ما يشبه الصلاة، صلاة من أجل هذا المكان الذي يعبق باللذة والغياب. وفي هذه الأثناء يصل إليه أنين المبروك مجردا من شوائب الظنون والتوقعات الآثمة، أنينا معدنيا كصوت إزميل في قطعة رُخام، كأن ما تفعله نورية ليس سوى نحت جديد تستعيد به الألفة وتصلح به غلطة قاسية.

يخرج الفرسيوي من جيب قشابته رسالتي الأخيرة ويقرأها مرات ومرات بصوت مسموع ومرنم كأنه يسرد "المَيْلُودِيَّة". يفعل ذلك بإعجاب شديد لأن الرسالة، باستثناء مقدمتها التي تتحدث عن الحوالة المتأخرة والأشواق التقليدية، هي عبارة عن نشيد شجي في ذكر دوار بوضيرب الذي قدمت منه سلالتنا

وتوجته منذ اليوم الأول لهجرتها، ملكا لحنينها الدائم. أتكلم عن هذا المكان الذي لا أعرفه مستعملا كل أحزاني الصغيرة لجعله حرقة تملح أيامي الضجرة، فيتعجب والدي من ذلك ويطرب له، ويقول سبحان من يجعل الدم مربوطا بنبعه الأزلي، ويقول ذلك ولا يحس بأي نبض خاص يشده إلى ذلك النبع السحيق، إلا ما تبقى في قرارة نفسه من إحساس ساخر، من تلك اللعبة التي مارسها على بومندرة أيام كان يدعي الإقامة في الريف.

عندما سيرجع الفرسيوي إلى جيب قشابته رسالتي التي لا يفهم سوى نحيبها البعيد، ستكون أشعة المغيب قد لامست قمة سلفات وأصبحت حبات الزيتون التي يبست في أشجارها، بعد أن لم يعد هناك أحد يهتم بجمعها، لامعة، نقية مغسولة بالضوء والنسيان.

بعد قليل ستدخل البقرتان. بقرة هموشة، وبقرة بيت المرحوم السّي محند أوبناصر. البقرتان أصبحتا طليقتين تذهبان وتجيئان عبر حقول التقليع، وأحراش عين بري وجنان الجامع، وتعودان عندما يَخِزهما الضرعان الممتلئان. ستمر نورية قبيل المغرب، لتحلب بقرة هموشة، وقد يمر أحد الفلاحين من القرى المجاورة لا لشيء سوى للتأكد من أن الفرسيوي الذي لم يظهر البارحة في السوق ما يزال على قيد الحياة. أما الفرسيوي فلم يظهر في السوق، لأن حوالتي تأخرت كعادتها كل شهر، وقد تكون نقصت كعادتها كل شهر. وهموشة في هذه الساعة من اليوم لا تطاق ولا تطيق، تظل

تذرع الفناء وتدق بعصاها على أحجاره، وتستدعي الأسماء واحداً واحداً من أجل حساب عسير على الشاذة والفاذة، كأن الغروب يصيبها بخرف مفاجئ، تستسلم له مذعنة حتى تجيء العتمات الأولى. وربما مر في تلك الساعة رجالٌ من ظهر الخلف أو دكارة، فوقفوا عند سياج الصبار قبالة سقيفة الفرسيوي وأخذوا معه في تفاوض يائس حول الأراضي الممتدة من المقبرة حتى مشارف عين لوطا، أراضي الفرسيوي الكبير وأخيه سلام وأبناء أعمامه وما آل إلى العائلة الكبيرة من مصاهرات انقرضت، لا هو شراء ولا كراء يا سيدي، نخدم الأرض التي أكلتها الحشائش، والزيتون الذي كسرته الغلات الثقيلة، ونأخذ النصيب الذي كتب الله، وماذا يقول الشرع يا سيدي، أنت اللي قاري العلم وعارف ما قال الله والنبي، الأرض هكذا تلعن أصحابها ولا اللاَّ لله!

وهل نحن نعرف من سيسبق للآخرة، أما أحسن يجيء الأولاد ذات يوم من الخارج، ويجدون الأرض مخدومة على حقها وطريقها أم يجيئون لتهجم عليهم الثعابين والحشرات لله!!

يستمع الفرسيوي إلى المرافعة المتلعثمة للمفاوضين، ويهز رأسه يمينا وشمالا، مرات كثيرة حتى ينصرف الرجال، فيقوم غاضبا يلعن الزمن الذي اضطره لسماع هذا الكلام من رجال من دكارة، مزيان أسيدي، يجيء السُّرَّاح ليستقروا في أرض العلماء والصالحين، وربما جاء معهم عيساوة فأصبحت الغيطة تشق سماء بومندرة!

يصل كلامه إلى هموشة فيكون تماما على مزاجها، لذلك لا تلبث أن ترد بنشيد طويل في مديح آل الفرسيوي، من بني عكي، قبيلة بني توزين، وتعدد فضائل كبارهم واحدا واحدا، مركزة على الرحلة من بوضيرب حتى مشارف التقليع، بفراخ النسور التي لم ينبت ريشها بعد، وعلى رنين "تساعية" علال الفرسيوي التي قتل برصاصاتها أربعين نصرانيا برا بقسمه يوم مقتل عمته، كلهم برصاصة واحدة، هنا بين الحاجبين، لا غير. أما محمد الفرسيوي فلا يشبع من هذا النشيد أبدا، يسمعه اليوم وغدا فيأخذه على سحابة من زهو تغسل روحه. هذه هي هموشة كما لا يعرفها أحد سواه. تلك الذاكرة الشفيفة التي كان يجلس إليها ساعات طويلة، يملأ منها دفتره الصغير بتفاصيل إقامته الوهمية في الريف. تملي عليه الأسماء والأحداث، وترتب له الوفيات والولادات، والأمراض والمواسم، والخصومات، في ظل مؤامرة محكمة التدبير، لا يعرفها سواهما، بدون ثرثرة زائدة، ولا محاولة للفهم، حتى إذا افتضح الأمر وكان ما كان لم يحتاجا أبدا للكلام عما جرى، كأن ذلك كان يخص شخصين آخرين عاشا مَسَافة أكذوبة ثم انطفئا كما انطفأت الأكذوبة.

هذه هي هموشة التي لم يسمع حسها هذا المساء، منذ سمع وقوع إناء الفخار على حجارة الفناء. كانت العتمات الأولى قد بدأت تلف الأمكنة، عندما انتبه الفرسيوي إلى الصمت المطبق على الدار، وعندما نزل مهرولاً من السقيفة، ظل شارداً، يدور بعينيه الزائغتين في الفناء الغائم قبل أن ينتبه

إلى هموشة ملقاة على الأرض هامدة، باردة، ويدرك أن الإناء الناضج، الرقيق، العذب، المزوق بدبيب النمل، الذي سمع صوت تهشمه قبل قليل لم يكن سوى هموشة نفسها.

XVIII

رجع محمد الفرسيوي من "الزاوية" قبيل الغروب، بعد أن قضى يوما كاملا لدى الدرك الملكي. وكان عند وصوله إلى بومندرة في غاية التوتر والغضب ليس لأنه تعرض لتحقيق مُرْبِكٍ ودقيق لم يفهم معناه حتى الآن، ولكن لأن خروجه من بُومنْدَرَة بعد سنين طويلة من اعتكافه بها كان تكسيرا عنيفا، ووقحا لهذا النسك الذي اعتبره نهاية مطافه. كانت الخيمة الزرقاء الكبيرة التي نصبها أعمار بن سلام الفرسيوي وأخوه عبد الواحد في الربوة المطلة على بيت الفرسيوي يسارا، وعلى سهول زكوطة يمينا، هي أول ما اقتحم رؤيته وهو ينزل من منحدر المقبرة فصب كل حقده عليها، لأن هذا الاضطراب الكبير لم يكن ليحصل لولا هذا المجيء المباغت والمنحوس لعائلة سلام الفرسيوي بأولادها وبناتها وبالفتاة الألمانية الناعمة مثل بيضة مسلوقة. وأن يكون أعمار، الذي فر مذعورا منذ سنوات بعيدة لمجرد اكتشافه للخراب الزاحف على بومندرة،

هو الذي يَعود اليوم وقد أصبح مثل بقرة هولاندية، فمعنى ذلك أن القدر ما يزال يخبئ لهذا المكان نصيبا جديدا من معجزات الحياة.

وصل رجال الدرك باكرا إلى القرية. جاءوا إليها صعودا من واد الدشر، لأن طريقا جديدة كانت قد شقت من عين الشكور مرورا بظهر بن عبدالله ووصولا لظهر الخلف حيث تنتهي تماما عند خروبة الوزيعة. كان أول من صادفوه في طريقهم نورية، وهي عائدة من حوش المبروك، وعندما بدأوا في مساءلتها صرخ فيهم محمد الفرسيوي من سقيفة المصرية، وكان قد تكوم بها هروبا من ضجيج الخيمة الزرقاء، فصعدوا نحوه متثاقلين.

لم تكن السقيفة عند وصول رجال الدرك كما كانت في سابق عزها. لا أثر هناك لصينية النحاس، ولا لبراد المعدن ذي الذروة الفضية البراقة، ولا لحنبل الصوف المبهج بألوانه الصارخة. كان محمد الفرسيوي قد اختزل كل ذلك منذ وفاة هموشة في جذع قديم، يضع عليه فروة الخروف التي تلازمه منذ أيام الحلقة. لذلك لم يستسغ رجال الدرك كثيرا أن يخاطبهم كائن بهذا الاختصار، كما لو كان من وجهاء حاضرة عريقة. ومن سؤال لآخر تنامى مشهد في غاية الغرابة. إذا كان رجال الدرك برئيس فرقتهم نفسه قد وصلوا حتى قلب بُومنْدَرَة، وهو المكان الذي لم تزره أية سلطة مدنية أو عسكرية منذ مرور الحاكم الفرنسِي بها غدَاة مقتل الخليفة الحيمر بقنبلة يدوية ألقيت عليه وهو يشرب الشاي بين رجاله في قلب الزاوية

ويوم سوقها الأسبوعي، فإن ذلك ليس من أجل التفرج على قرية نادرة المثال، وإنما بسبب برقِية نزلت في مقر السرية، مفادها أن مجنونا خطيرا يدعى مزيان، وهو من نزلاء مستشفى المجانين ببرشيد منذ أزيد من خمسة عشر عاما، قد هرب من المستشفى، وقد يحتمل أن يكون متوجها إلى قرية بُومنْدَرَة، سطوب، بأحواز زرهون، سطوب. عمل اللازم وإحاطتنا علما بالموضوع سطوب!

وها هو الرجل الذي يؤنب الدرك على تعرضهم لنورية يقول إن القرية المعنية هي هذه أسيدي اينو، وأن نورية هي بنت المجنون بالذات، وأن الرجل الملتحي الذي لا يكف عن دعوة صديقة ابن أخيه عبد الواحد، الألمانية اللذيذة، إلى اعتناق الإسلام، بينما هي لا تكف عن مص شفتي صديقها على مرأى ومسمع من خروبة الجامع. ليس سوى اعمار نفسه الذي هام على وجهه يوم اكتشف في عودته الأولى خراب بومندرة، وها هو اليوم قد نصب خيمة للتأمل صحبة عائلته في مسار هذا الانقراض الجميل.. نعم، هو وأخوه الأصغر وبنته وزوجها، يعتبرون كل هذه الخرائب والدور الخاوية والأعشاب التي أكلت الأمكنة مشهدا فاتنا جديرا بالعشق. إسألهم أسيدي اينو، هل يرجعون غدا أو يموتون كما متنا جميعا، من يعرف لله! هم الآن يهشمون جمجمتي بهدير مناقشاتهم وبصخب أجسادهم اليافعة، وأبوهم يهلكني بلحيته القبيحة ووعظه وإصراره على أن أصلي وأنا مفرق مثل قنطرة، ومن يعرف لله ربما يقيمون هنا ويعمرون البلاد من جديد! وهذا الصوت لله

هذا صوت المبروك، أسيدي اينو، صار هو الآخر منذ نصبت هذه الخيمة المنحوسة مثل ماكينة لا تفتر عن الطحين.. كيف مات الناس لله! وهل الموت أعجوبة أسيد القايد لله! وقال الدرك لمحمد الفرسيوي اتبعنا، فتبعهم، وهناك في مكتب القائد بزاوية مولاي ادريس عاد محمد الفرسيوي للتساؤل بسذاجة واستخفاف: وهل الموت أعجوبة أسيد القائد لله! آه، هذه لم تكن في رأسنا، كان يجب أن نعلم المخزن منذ ثلاثين سنة، ونقول بأن نيتنا، إذا كمل الله، هي أن نموت واحدا بعد الآخر حتى تعود بومندرة حَجرا من الوريد إلى الوريد. وكان القائد يضحك ويقول للفرسيوي لابد من تسجيل محضر بهذا الوضع، لأن المخزن لابد أن يعرف ما إذا كانت بومندرة ما تزال على قيد الحياة أم لا، وهل يدخلها في حساب المدارس والطرق والانتخابات أم يمسحها من أوراقه. لا أسيد القايد يمسحها نهائيا! أما حكاية هؤلاء الذين جاءوا من ألمانيا فليست هناك حكاية أصلا. الرجل أعمار وأخوه عبد الواحد وابن أخيه والألمانية الممسوخة، والنساء والأطفال والخيمة الزرقاء أشعل الله فيها العافية، هؤلاء كلهم إذا شئنا الاختصار يتصلون بالمرحوم سلام الفرسيوي وكنزة بنت محند سلام اللَّذين ماتا هذه قرن وغزالة، وكل المساحة التي كانت تملؤها العرصة وغرف الدار الكبيرة والرّوَا أصبحت اليوم مثل أحراش الخندوق، وها هم الآن في بلادنا، بلاد الفرسيوي أسيذي اينو، إذا كان هناك شيء تحت رأسهم فإنهم لم يجدوا أحدا يقتسمونه معهم. الخلاء يا سيدي، الخلاء من الطرف إلى الطرف!

وقال القائد لابد إذا وصل مزيان أن تخبر به المخزن. وإذا وقع شيء ما في الدوار لابد أن يكون عندي في الحين. أما المبروك فستخبر به العمالة لتعمل اللازم.

كل هذا اختزله محمد الفرسيوي بغضب وعدوانية عندما تحلق حوله أصحاب الخيمة مستفسرين: هَا هُوَ جَايْ اللِّي أدِ يْجِيبْ لْهَا التْمَامْ في مَرَّة! ثم راح يشرح الخطورة القصوى، الخطر الداهم، الموت المحقق، والذبح من الأذن حتى الأذن، أي كل ما سيأتي على يد مزيان إذا وصل إلى بومندرة، ويا رب يجيء اليوم قبل الغد. قال ابتهاله هذا بكل جسده رافعا رأسه إلى السماء التي ظهرت نجومها الأولى ومضى مسرعا نحو المصرية.

لم تعد السلطة إلى بومندرة، ولم يأت أحد للاستفسار عن مزيان أو عن الغرباء أو عن الموتى، ولم يذهب محمد الفرسيوي إلى مخفر الدرك ليبلغهم أن مزيان قد وصل في تلك الليلة بالذات. كان ذلك بعد المغرب بقليل. عندما جلس محمد الفرسيوي في السقيفة واحتسى نصف براد من الشاي، اتكأ بظهره على الحائط وراح يستجمع تركيزه لقراءة الحِزْب. وفي هذه اللحظة بالذات ظهر مزيان وسط سياج الصبار الذي يفصل بلاد الفرسيوي عن الطريق. أخرج رأسه فقط وابتسم ابتسامة عريضة مكشرة ثم وضع أصبعه على شفتيه يطلب الصمت.

اهتز محمد الفرسيوي من كل أعماقه لهذا الظهور المرعب، ولكنه لم يتحرك من مكانه، ولم يعبر عن هلعه. ظل قابعا كحيوان فزع يحاول أن يتخيل ما سيجري حتى انسحب

الشبح خلف السياج. ومنذ هذه اللحظة امتلأ محمد الفرسيوي بشيء أسود، ليس خوفا ولا حزنا ولا اكتئابا، شيء شبيه بيأس الذاهبين. وقد لازمه ذلك وتنامى حتى لم يعد بإمكانه أن يفعل شيئا سوى الذهاب والمجيء طوال اليوم بين واد الدشر وحافة بني مرعاز، ذاهلا، مأخوذا، حتى يهده التعب فينام حيثما يجد نفسه. كانت نورية التي فهمت وحدها أن الفرسيوي عاد إلى تيهه القديم، تتبعه من حين لآخر بقدح ماء، أو بقليل من حريرة الشعير التي يحبها. فكان ظهورها المباغت يضيء وجهه بإشراق سريع فيقول لها: ما تخافيش منو أبنتي، رَاهْ ابَّاكْ هَادَاكْ. لكن التعبير المنطفئ في وجه نورية كان يعيده فورا إلى حفرته المعتمة. فإذا صادف أن وصل إلى سقيفته الأثيرة، كان أعمار يهرع إليه عندئذ ليأخذ بيديه معا ويبدأ في تحريكهما صعودا وهبوطا وهو يردد الله حي، الله حي، فلا يرجعه إلى صوابه سوى الجمود القاسي لجسد الفرسيوي. وربما جاءت البنت الألمانية فنهرت الرجل الذي يريد أن يملأ ذهول ابن عمه بالذكر، فكان الفرسيوي يتمنى عند ذلك لو تتصرف معه مثلما تفعل نورية مع المبروك، أي أن تأخذ منديلا ناعما وتمرره على وجهه وعنقه ليتفرج عن قرب على تلك البشرة الوضيئة التي تكاد تطوش بالدم، أو ليجرب ملمس يدها ذات الأصابع الدقيقة البيضاء.

في كل مغرب شمس كان مزيان يظهر في مكان ما بابتسامته المكشرة البلهاء. مرة وهو يشحذ مديته ذات النصل القصير المعقوف، ومرة وهو يمرر يده على عنقه مهددا

بالذبح، ومرة بدون أية حركة. وكان الفرسيوي يأخذ من أهل الخيمة مأكله اليومي فيضعه كاملا في تلك الفجوة التي تركها مرور مزيان في سياج الصبار. وعندما رأته نورية يفعل ذلك، لم تسأله، ولكنه وجد أنه من المناسب أن يكلمها في شأن والدها: الرجل يا بنتي هارب من سجن المجانين، وهذه الخيمة الملعونة هي التي روعته فلم يعد يعرف ما يقدم وما يؤخر. ولكن ولا كلمة هنا أو هناك. إذا كان أحمق دْيَالنَا وإذا كان بعقله دْيَالْنَا، حتى يقبض الله الروح التي هي نفسها في الاحمق كما في العاقل. ونورية التي كانت تتلقى خرف الفرسيوي بحنُوٍّ لا حدود له لم تكن لتشك لحظة واحدة أن والدها يوجد حقا بين أحراش القرية وخرائبها. حتى كان ذات صباح عندما دفعت باب الدار المهترئة، التي يأوي المبروك إلى حوشها، فإذا بجسد ضخم لرجل مقوس ينزل شعره الأشيب على كتفيه يهوي من سطح المنزل إلى حوشه ويشتبك مع المبروك في عراك أهوج.

وقد جاء محمد الفرسيوي، وهو في غاية الاهتياج والرهبة، ووقف إلى جنب نورية يحاول مد يده إلى ذلك الموج الهادر الذي اشتبك مع بعضه وراح يقض بعضه بعضا بدون أصوات، لكنه لم يقو على ذلك، فتراجع مُسَلّماً، وجلس قبالة تلك الزوبعة الصامتة وظهره إلى الحائط، ثم أغمض عينيه حتى لم يعد يسمع شيئا. فتح سورة الملك، فامتلأ بها صوته الرخيم امتلاء كثيفا، حالما، كأنه غيم يلف الأمكنة. وعندما فتح عينيه في نهاية السورة، كان المبروك ومزيان مستلقيين جنب بعضهما

يغطان في نوم عميق، وكانت نورية تمد يدها لِتنهض الفرسيوي من أرجوحة ترتيله العذب، وتلقي به من جديد في خواء الذهاب والمجيء.

ولا أحد سيعرف بعد ذلك ما الذي حصل لمزيان ولا كيف حصل. كان من عادة الفرسيوي أن يتوقف عند الصهريج القديم الذي كانت تشرب منه بومندرة أيام أنشأت سقاية الدوار من ماء العين التحتية، فيجلس على حافته واضعا قدمه اليمنى على الصنبور النحاسي الكبير الذي لم يعد يمر منه سوى الهواء. وفي ذلك الصباح لم يستطع إكمال الحريرة التي وضعت فيها نورية زيتا كثيرا وزعتراً ونعناعا، لمحاولة السيطرة على الرشح الذي يخض الفرسيوي منذ أسبوع، فترك نصفها عند حافة السقيفة وجرى كالملسوع باتجاه الصهريج.

كان كلما تقدم من ذلك البناء المحفوف بالصبار ونبتة الشيبة اهتز خاطره وانتشرت بقعة السواد الثخين التي تعشش في دواخله منذ فترة. ولا أحد كان يستطيع شيئا لتبديد ذلك الكرب الذي أحاط به، كما لم يكن لأحد أن يستطيع إيقاف ذلك الأنين المكتوم الصاعد من أحشاء الصهريج، أنين احتضارات متداخلة تخبو حينا، وتعلو حينا آخر، تتخللها أصداء ارتماءات واختناقات وتخبط في برك لزجة. كل ذلك في مساحة ترعاها تكشيرة مزيان، وهو واقف على الهضبة المطلة على إفاقة القرية، محتقن الوجه، ويداه مشتبكتان خلف ظهره وجسده منكفئ إلى الأمام كأنه يهم بالتحليق. عندما وقف محمد الفرسيوي على فتحة الصهريج تماما، وصلته رائحة دم

نفاذة، مختلطة بروائح بُرَازٍ وتُرَابٍ وقَيْءٍ، ودون أن يفكر في ما ينتظره من رعب أطل على أحْشاء الصهريج ليجدها ممتلئة عن آخرها بأجساد مقطعة ما تزال مأخوذة في ارتعاشات النَّزْع الأخير. وأطل على الصُّنبور النحاسي أسفل الصهريج، فإذا خيط دم قان ينزل منه وينحدر ثقيلا متخثرا باتجاه العين التحتية.

ربما دار بخلده أن يصرخ، أو أن يذهب مباشرة إلى سرية الدرك الملكي أو أن يجري باتجاه الخيمة الزرقاء.. ولكنه لم يقو على فعل أي شيء.

مد يده إلى الصنبور فأحكم إغلاقه، ومضى إلى الممر الرملي الفاصل بين الجماعة وواد الدشر فأحضر منه ما يكفي من الرمل لدفن الساقية التي امتلأت بدم ساخن. وفي تلك اللحظة سمع هدير الماء أسفل المنحدر. أرهف السمع جيدا، لم يكن في الأمر أي مجال للشك.. لقد انفجرت العين التحتية بعد سنوات طويلة من الإمساك.

وكان صوت الماء القادم من تلك الأحراش الخضراء من النعومة والشجن ما جعل محمد الفرسيوي يندفع بتصميم جنوني نحوه وقد وصلت إلى حلقه برودة الماء.

XIV

قرأت الصفحات العشرين التي كتبها والدي في دفتره العجيب مرات كثيرة. كان ذلك قبل أن يختفي مساء ذلك اليوم المتوتر بعد جنازة رقية أرملة المرحوم الفقيه السِّي محند أوبنَّاصر. كنت أقرأ الدفتر بافتتان ورهبة، لكونه كان مزيجا من بطولة أدبية خارقة، وجرح شخصي رهيف. ثم عدت إليه اليوم بنوع من الهدوء. بعد أن وصلني خبر الاختفاء أحسست أنني أحتاج إلى قدر كبير من الهدوء والسكينة لأقرأ هذا الأثر الوحيد الذي تركه لي والدي. وكنت قد مررت بفترة عصيبة وقعت فيها فريسة تأنيب ذاتي عنيف، وذلك عندما تهيأ لي أنني تفرجت على محنة والدي دون أن أحرك ساكنا ؛ فقد كان من المفروض أن أكون أقرب الناس إلى جنونه ووحدته، لأنني اقتسمت معه ذاكرة امرأة ومكان يانعين. ولكنني لم أقترب منه، بل حتى عندما حدثني هاجس بقرب اختفائه لم أضطرب كثيرا، وبقيت مستسلما لبرودتي، مؤجلا قلقي إلى حين. لكنني الآن

في وضع أقل انكسارا، فقد اتخذ الاختفاء المفاجئ لمحمد الفرسيوي، بعد مضي بضعة أسابيع، شكل حل أمثل. ربما لم يكن هناك حل أنسب منه ولا حتى الموت نفسه، وليس ذلك لما يضفيه على الجو كله من غموض يسمح بمنح الفجيعة طبيعة غير مشخصة، بل لأن الحلول الأخرى مثل اغتصاب نورية، أو مقتل أحد الطامعين في ملك الفرسيوي، أو التحاقه بركب الحمقى المعتصمين بأضرحة المدينة القريبة، كل ذلك كان سيجعل الفرسيوي أقرب إلى شخصية روائية منه إلى شخص حقيقي.

وها أنا أقرأ الصفحات العشرين بهدوء من يقرأ وصية غامضة. تبدو قرية بوضيرب في النص الذي بين يدي مثل تخطيط على ورق شفاف، تخطيط يعيد إنتاج خريطة بُومندَرَة بمسالكها البشرية المتشابكة، وفي التخطيط الذي يكشف اضطرابُ بعض خطوطه ذلك القلقَ المؤكَّدَ الذي يميز كل حريص على التماثل، لا مكان للأشياء، أي لا مكان للأمكنة. كل ما نجده في التخطيط هو ذلك التدفق السريع للأسماء والمصائر. فعبر الصفحات العشرين لدفتر والدي تم ترتيب مسارات في غاية الدقة والبساطة لثلاثمائة وأربع وثلاثين شخصا، بأعراسهم وجنازاتهم وخصوماتهم وهجراتهم دونما أي خطأ، أو تناقض، أو غموض، أو زيادة أو نقصان. في ذلك الحيز الضيق تم إنجاز أضخم عمل روائي عرفته الإنسانية. عمل تحتل الأسماء الشخصية تسعين في المائة من مساحته المكتوبة، حيث لا وصف ولا شعر ولا تأمل ولا حنين، كأنها

كتابة بالكائنات وليس باللغة. كتابة تدخلها خاويا، مستسهلاً، مستخِفا، وتخرج منها مصعوقا وقد وقعت كتفاك تحت ثقل عشرين سنة من المصائر المستخلصة بعنف وشغف كما تستخلص روح النباتات.

كانت قراءتي، حتى في عز هدوئها، مسكونة بحنين صاخب مستند إلى نوع من الحدس الغامض. فبوضيرب لم تكن تعني لي حتى ذاك الوقت أي شيء سوى أنها منبع لهجرة قديمة لم تكن هجرتي، هجرة علقتها السلالة مثل تميمة، وظلت تنسج حولها حركات جسدها وطقوس أشواقها. وقد انتبهت ذات يوم لأجد نفسي معتنقا لهذا الإرث بدون حماس زائد، ولكن بنوع من التسليم، أذكته رغبة غريزية في تقمص قدر مبهم، لحظة فناء بومندرة.

هكذا، وحتى قبل أن يختفي والدي كنت قد كتبت له رسالة طويلة عبرت فيها عن شغفي ومخاوفي تجاه ذلك المكان البعيد. والواقع أن الرسالة لم تكن سوى محاولة لترويض تلك الأحاسيس المتضاربة التي خلفتها عندي قراءتي الأولى للدفتر المعلوم. لقد تَبِعتُ خيوط الدم التي نسج بها والدي بتواطؤ ذكي من هموشة شبكة تلك السلالة المتشظية فألفيتُنِي مأخوذا في اشتباكاتها، مشدودا لسحرها، وأحسستُ بأن هذه الورقات التي تعمد والدي نسيانها بين يدي ليست سوى وصية سرية، تهدف إلى استرجاعي من أسانة حياتي العادية والقذف بي في تجربة وجودية حاسمة.

ولكن قراءاتي المتوالية للوثيقة، ومحاولتي المتكررة للعب

بشبكة الأسماء المتقاطعة، كل ذلك خفف من توتر الحالة وجعلني أنزل بها من علياء التعقد الأدبي إلى أرض الاحتمالات البسيطة. وعندما وجدت نفسي ذات صباح ربيعي دافئ جالسا بمقهى الريف في مدينة الناضور، لم يكن ينتابني أي شعور بالإقدام على تجربة خارقة. كان في نيتي أن أتجه إلى قرية بوضيرب، فربما عثرت هناك على والدي، وربما أتيحت لي فرصة اللعب مرة أخرى بتلك الأسماء المتقاطعة فأوصل منها ما يمكن إيصاله بشبكة الدم الرئيسة، أختبر قدرة الحنين والتحايل على الحلول محل المصائر الواقعية، وربما استطعت بقليل من الحظ أن أعثر في المكان نفسه على حجر ينزل بروحي إلى أعماق هذه اللحظة. سألت عشرات الناس عن بوضيرب دون الحصول على معلومات دقيقة. سألت شيوخا يحتفظون بنظراتهم الحادة، ورجالا مستعجلين، وشبابا يتطلعون إلي بعيون مستفهمة ولا يحيرون جوابا. سألت رجال الدرك، وسائقي الطاكسيات، والنازلين من حافلات الأحواز، وكل هؤلاء كانوا يزيدون حيرتي بذكر أسماء أخرى تتشابه مع بوضيرب حتى لتكاد تكون هي نفسها. واتجهت لمصالح العمالة، فارتابوا في أمري، وأحالوني على الشرطة التي حققت معي طويلا مبدية تشككا في حقيقة ما أدَّعِيه. وقال الضابط الذي كان كثير اللباقة: إن هذا النوع من القصص الذي يبحث فيها الناس عن قرى أجدادهم لم يعد له وجود إلا في الأفلام. وفجأة بدا لي الأمر في غاية السخافة، فهذه القضية كلها بأحلامها، ورحلتها وتهاويمها لا تساوي بصلة،

فأحرى أن تساوي جلسة في مقهى باليما، بجرائدها ومتسوليها ونجومها البالية!

لكن هذا الإحساس سرعان ما فارقني عندما صعدت إلى الحافلة المتجهة نحو "عزيب مضار" بناء على نصيحة من ضابط الشرطة حيث سيكون عليَّ أن أسْألَ هناك في القيادة عن وجهتي من جديد.

في الحافلة جلستُ قرب شيخ في غاية الحيوية، ما لبث أن استحوذ على قضيتي بحماس، معطيا في البداية رأيه الخاص، وهو أن بوضيرب توجد حتما في دائرة تمسمان، وأهلها من شرفاء بني توزين، قبل أن يجعل ركاب الحافلة يخوضون في الموضوع مقتربين أو مبتعدين من صيغته، مما خلق صراعات لطيفة راقبتها بحياد متلذذ، خصوصا وأنها كانت تجري في لغة الريف الفخمة ذات التموجات، والأصوات الوحشية. وأخيرا حسم السائق الموضوع بالاتفاق مع الشيخ. وبناء على ذلك كان علي أن أنزل في "الدريوش" سبعة عشر كلومترا قبل "عْزيب مضار" حتى أتمكن من الذهاب من هناك رأسا إلى تَمْسَمَان. وعندما أبديت ارتياحي لهذه الخلاصة، قال لي الشيخ إن الدم لا يضيع أبدا، وروى لي قصة رجل التقى به في حافلة تماما كما حصل له معي، وكان الرجل يبحث عن عائلة أبيه التي افترق عنها في ظروف غامضة منذ كان طفلا، وهو لا يذكر من هذا الصبا سوى أن أباه كان يسكن الحسيمة، وأن اسمه صالح، وأنه كان يُرَبِّي خروفا يتبعه في المدينة. ومن هذه المعلومات الساذجة، يقول الشيخ، استطعنا العثور على عائلة من كبار أغنياء الريف.

نزلت في الدريوش، واستطعت بعد ساعة من المفاوضات أن أكتري سيارة بوجو قديمة، كان صاحبها يعرف السبيل إلى بوضيرب على وجه الدقة. وهكذا ما إن تجاوزنا وسط البلدة وانحرفنا يسارا لِنأخذ طريق سيدي الطيبي، صعودا نحو تمسمان، حتى أحسست بانقباض شديد كأنني مقبل على انتهاك معبد. تذكرت في هذه اللحظة جلساتنا حول هموشة وتلك النبرة الفخورة التي كانت تجلِّلُ أحاديثها عن الريف كأن الذاكرة المعترشة بالأسماء والأحداث لم تعد ممكنة بدون مفاتيحها.. وإذْذَاك انتزعت مِن نفسي كل بارقة أمل في أن أجد والدي هناك. لا يمكن لرجل رقيق وهش مثل محمد الفرسيوي أن يجرؤ على اقتحام هذا المكان. وتمكنت بذلك من استرجاع شيء من الهدوء جعلني أتفرج على الجبل المغمور بالغمام بأقل ما يمكن من الكآبة.

حدثني السائق عن كل تلك الدور الفخمة المقفلة التي تنتظر أصحابها حتى يهزهم الحنين إلى الريف، ليغادروا الأمصار البَعيدة، ومغامرات التجارة والتهريب، فتفتح لهم نوافذها المغلقة، وتبسط لهم طريقها الملتوية مثل ثعبان، ليثيروا غبارها بسياراتهم الفارهة. حدثني عن الريف كما هو في هذا الجبل بالذات، أي ربيعا في عز الصيف، وقصوراً خاوية، وأساطير من الانتظار والمغامرات، وليس كما استقر في مخيلتي حروبا وقبائل متناحرة، وبنادق وقسوة. كانت المنعرجات تفاجئ من حين لآخر بمشهد بيت أبيض معلق في مهب الريح، في تراب متدرج مِنْ بياض صلصالي، إلى بني

خَرُّوبِي، وإلى خضرة غير مستقرة، كأن تعاقب الظلال الغائمة وزرقة السماء يقتحمان وجودها بإضاءات متصارعة. وكل هذا استدرجني بعد فترة إلى سكينة غامضة، كما لو أن شيئا ما سكب في أعماقي تناسقا بديعا للأشياء والأمكنة.

عندما ظهرت تمسمان لأول مرة، كنت قد تخلصت من كل ما يفصلني عن بوضيرب، فلم يعد يهمني سوى تجاوزها بسرعة، لذلك سألت السائق عن وجهتنا الآن، فأشار إلى هضبة حمراء خلف تمسمان بدت لي الخطوة البكر في مسار هذه الرحلة. وقد استمعت لتعليق ضاف للسائق حول بناة تمسمان، أولائك الرجال المطلون من غيابهم كما تطل أزهار الصحاري، ولكنني لم أتعاطف مع الصورة التراجيدية التي رسمها التعليق، وكدت أعبر عن ذلك بعدوانية، عندما أحسست فجأة أن هذا الإصرار على اقتحام الأمكنة البريئة بكتل من الإسمنت والأصباغ، ليس سوى تعبير ساذج وسطحي عن تعلق مشبع بالكراهية والاستعلاء والازدراء. وكنا في هذه اللحظة قد تجاوزنا آخر بناء أبيض بتمسمان وأخذنا في الانحدار من الهضبة الحمراء نحو وادي بوضيرب. كان ذلك قبيل غروب الشمس، وكان أول ما رأيت في الوادي جدول ماء يخترق أرضا رمادية تتلألأ بالحصى. وكان لذلك وقع دفقة هواء عنيفة تقتحم أنفاسي، بل وجسدي كله. وراح السائق يحدثني عن الوادي العظيم الذي يمتلئ في فصل الشتاء حتى لا يستطيع الاقتراب من هديره أحد. هذا دوار أيت توزين، وبه كان المجاهدون أيام عبد الكريم يقيمون بخيلهم وسلاحهم،

وهذا دوار اسلماثن لم يبق به سوى دور قليلة، وكان أيام العز معقل القرآن وطلبة العلم، هناك في الجبل الأخضر المطل على الجامع ذي الصومعة المصبوغة يوجد دوار إمكيشن، هنا سوق الثلاثاء ثلاثاء اكَراواماس، وهو أقرب سوق إلى بوضيرب، هذه هي العين المعلومة، هناك جنب شجرة التين الكبيرة، حيث قتل النصارى عمة المجاهد سيدي علال أوفارس فقتل منهم أربعين خلقا في شهر واحد. وها هو بوضيرب أسيدي دوار الفحُولة والمجاهدين، انظر إلى البيوت كيف أصبحت قصورا مغلقة تهجم عليها الحشائش وأغصان الكروم. هذا هو حانوت الدوار، وقبالتك أسيدي الطريق المؤدية للجامع. بياض ناصع، في خضرة ناصعة مغسولة، وها هو صمت الأمكنة يصلني عبر قدمي، عندما نزلت من السيارة ورفعت وجهي صوب جنبات الوادي وقد تدلت منها أعراش الدوالي وعناقيدها، وتقاطعت فيها أغصان الخروب بثمارها الخضراء التي لم تنضج بعد، وأغصان التين الضخمة الأوراق.. لا أثر لكائن يجرح هذا الصمت. ربما لمحت في فجوة باب بعيدة عينين لامعتين أضاءتا ثم انطفأتا فجأة. ربما سمعت حفيف ثوب، أو سقوط كلمة على أحجار العتبات. كان الغروب يقترب من لحظته الحاسمة، وكنت أخشى أن يهب آذان المغرب فجأة فيخنقني البكاء، ولم يكن هناك مكان لمكان آخر. كانت الكائنات المجنحة التي في داخلي تهوي من السماء الصافية بأشجار جوز ضخمة وتغرسُها في جنبات الوادي وتقتلع الإسمنت المصبوغ لتضع مكانه مربعات الطين

الحالمة حتى يعود كل شيء إلى مكانه: الألوان إلى نسغها، والأمكنة إلى شِعْرها المُصَادَرِ، والروح إلى جنوبها. وكان الماء يوشح كل شيء بنشيده الأبدي، ماء لا يصعد ولا ينزل ولا ينساب، بل تتنفس به مسام الكينونة. وكنت مرتعشا بالشوق، والرضى، والمحبة، أنشج في حضرة أمي: بوضيرب. أي تيفنوت.

XX

تقرأ نورية، من الذاكرة، سرا وجهرا، ولِسَاعات طويلة كل يوم، ما تيسر من القرآن. تقرأ وهي ترتب شؤون البيت، أو تعد رقية لجلستها الجامدة في السقيفة. تقرأه في الطريق إلى العين، أو واقفة تنتظر العائدين من السوق أو من الحقول البعيدة. تقرأه وهي تنظف المبروك، وتستقبل على وجهها الوردي بخار تنفسه الطفولي .. تقرأه مغمضة العينين، وهي تمشي ببصيرتها على مساحة اللوح المحفوظ، كأنها تمشي بين أمكنة مألوفة. تقرأه متدبرة في موسيقى الألفاظ، وصفاء جرسها، وقوة نبضها الغامض. وتقرأه وهي ساهمة لا تعي ما تقول، كأن صوتا داخليا يتلوه عليها.

وعندما تخرجها بعض شؤون الحياة عن مسار هذا الدفق الدفين يجرحها الصمت، فتفاجئ نفسها في شرك الجسد الفوار، مأخوذة في عنفوانه وحرارته، لا تدري بأية قوة تستطيع درء إلحاحه القاسي.. فكانت تجد لذلك ألما ولذة متشابكين،

شيئا قريبا من الموت قربه من الولادة، تنزل بكل ذلك إلى بئر مظلمة في قرارها، وتتبع كرة الضوء الصغيرة السابحة في ملكوت النفس.

كانت لأمها رقية لحظة إفاقة واحدة في اليوم، في تلك الساعة الملتبسة بين الضوء والعتمة، بين الحياة والموت. تخرج من رماد عجزها صرخة مبحوحة متقطعة تكون بمثابة إيقاظ لألم العالم، وعلى مستوى أقل شساعة، تكون إيقاظا لعواء المبروك، ولترجيع محمد الفرسيوي وهو يستقبل غبش الصبح من السقيفة المظللة بالدالية اليانعة، ولما لا نهاية له من الفقاعات الصغيرة الملونة التي تنبعث من رموش نورية وتغرق الدنيا كلها في نعومة غيمية دافئة.

لكن صباح تلك الجمعة لم تصدر الصرخة من مكمنها، وظلت بومندرة غارقة في سبات أخرق، لم تخرجها منه سوى البدايات اللاسعة للضحى الصيفي. حتى أن الفرسيوي عندما انتبه لكل ذلك الضوء الذي يغمر الأمكنة ضج من رقدته فزعا، وتيقن فورا أن جنازة ما في الطريق. لذلك ما إن أبصر نورية تمشي في الحوش ويدها مضمومة على فمها حتى بدأ يتلو في سره سورة الإخلاص ترحما على رقية، أرملة الفقيه الصالح السِّي محند أوبناصر، المرأة التي تبنت نورية، ورعتها نبتة برية خجولاً لتمسح برقتها وحشة الأشياء. خلال السنوات التي قضاها محمد الفرسيوي يتأمل نورية في الحوش، كان شيء ما ينبعث من وجود رقية يجعله قلقا ومطمئنا في آن، كأن حضورها وحده كان كافيا لتبديد الأفكار الآثمة، وجعلها في نفس الوقت ممكنة وغير مصادرة.

الآن وقد خلا الجو تماما أحس محمد الفرسيوي باستحالة كل شيء. حتى أنه لم يقو على مخاطبة نورية، أو الذهاب إليها لترْتيب جنازة لم يعد هناك من يرتبها سواهما. وهذا هو الذي جعل الدموع تصل إلى مقلتيه مدرارة، أكثر من الحزن القادم من ميتة متوقعة. أما نورية فلم تكن مرتبكة للحد الذي توحي به مشيتها القلقة. كانت تنتظر موت رقية باطمئنان ورباطة جأش، سمحا لها بالتفكير في كل شيء، حتى في ما سيحدث بعد الجنازة عندما تؤوب إلى البحث المقفر وتبدأ رحلة وحدتها.

قبل بضعة أيام من وفاة رقية، رأت نورية في منامها الفقيه السِّي محند أوبنَّاصر. رأته جالسا تحت شجرة التين، في تلك الربوة البيضاء التي تطل على حقول "زكوطة" وبين يديه رزمة ملفوفة في ثوب أبيض. اقتربت نورية من مجلس الفقيه وخمنت أن في الرزمة ملابس جديدة. كانت في تلك اللحظة تعرف أنها في حلم فسعت إلى تأويل هذا المجيء المباغت للفقيه برزمة من الملابس. ودار في خلدها أن الملابس إذا كانت جديدة فبشارة خير، وإذا كانت بالية نظيفة فهي كشفُ غُمَّةٍ، وإذا كانت متسخة فهي إشارة لآثام مقترفة. غير أنها عندما جلست بين يدي الفقيه انسحب إحساسها بالحلم، وانصرفت بكل جوارحها لبشاشته اللذيذة، وللنور المشع من وجنتيه. وربما أدرك الفقيه ارتباكها فدفع لها بالرزمة مبتسما، ففتحتها بفرح وتوجس. كانت تضم ملابس أمها نجمة: القفطان الأصفر والدفينة السمنِيَّة الموشاة بالصقلي، والمنصورية المزركشة

بالأزهار الوردية والحمراء والبنفسجية مع دفينتها الحريرية الحمراء الفاقعة... ملابس أمها بالضبط لكنها جديدة كل الجدة لا علاقة لها بالأثواب الخلقة التي ترقد في الصندوق. ضمت نورية الرزمة البيضاء إلى صدرها فوصلها عبير الثوب الذي لم يلبس بعد، وسمعت نحنحة الفقيه فسرت في بدنها قشعريرة خجل مفاجئة.. ولكن الفقيه لم يتكلم. أشار بيده جهة المقبرة كأنه يقول مُرِّي من هناك وانْزِلي صوب البيت من خلال زيتون الجامع الفوقي، كأن اليوم يوم سوق، والطريق آهل بالعائدين. هكذا فهِمَتْ في الحلم، فَهَمَّتْ بالذهاب، لولا أن تذكرتْ شيئا أربكهها. قالت للفقيه متلعثمة: إنها تغسل المبروك وتطعمه وتغير ملابسه، فهل ذلك حلال أم حرام. وانتظرت فلم تسمع جوابا، والتفتتْ، فإذا الفقيه في عناق مع محمد الفرسيوي، عناق جامد لا يشوش عليه سوى نحيبهما المكتوم.

قَرَّرَتْ نورية بينها وبين نفسها، أن تكون لجنازة التي تلقت بشأنها إشارة ربانية في هذا الحلم جنازة سريعة مقتضبة. وقررت أن تذهب في نفس اليوم لسقيفة محمد الفرسيوي وتطلب منه أن يبني بها على سنة الله ورسوله. ولذلك فَقَلَقُ نورية لم يكن صباح ذلك اليوم راجعا إلى الهول الذي أحدثته الوفاة في نفسها، بل إلى ما ستقدم عليه في ذلك اليوم نفسه، مستعينة بيقين عميق أن ذلك هو ما يشير به الفقيه من علياء روحه.

قبل خروج الجنازة التي أحضر لها محمد الفرسيوي ثلاثة "طلبة" من بني مرعاز وبعضا من معارف الفقيه القدامى،

وصل إلى بومندرة فجأة رجل قصير تحف بوجهه المستدير لحيةٌ رفيعةٌ، ويستقر على أرنبة أنفه الحادة خيطٌ رماديٌّ من وشم قديم. كان في صحبة الرجل امرأة ترتدي على أثوابها المزركشة إزارا أبيض لا يلف سوى كتفيها وخصرها النحيل، وطفلان يكادان يكونان توأمين من فرط تقارب سنهما. نزل هذا الموكب الصغير، الذي يحمل أمتعته على بغلة سوداء في الممر الضيق وراء بيت الفرسيوي، تحت شجرة الخروب. وما إن جلست المرأة حتى انطلق الصبيان في بكاء عصبي كأنهما أحسا بوحشة المكان، وقد تلقى الجمع الصغير الذي كان متأهبا للخروج بالجنازة هذا البكاء كرسالة سماوية. قبل ذلك كان الفرسيوي يتأمل ما يجري حوله بانخطاف، مبديا بينه وبين نفسه دهشة من هذه الجنائز التي لا بكاء فيها ولا نواح، كأنها مجرد مقدمة تمرينية لجنازة حقيقية كبرى ستأتي ذات يوم. تذكر عندئذ أيام الوباء التي عصفت ببُومنْدَرَة، وكيف أن الناس من كثرة ما كانوا يدفنون لم يعد لهم متسع للبكاء، وهو ما دفعه إلى التعمق في تأمله المباغت ليخلص إلى الاعتقاد بأن البكاء الخالص، البكاء المنبعث من بؤرة الكينونة، البكاء النقي من كل شوائب اللفظ وأدران المعنى، هو بكاء الطفولة. أما ما عداه فليس سوى دموع ثرثارة. وكعادته عندما يصل إلى حقيقة صافية، امتلأت عيناه بالدموع. وكان في شغل عن نفسه وعن الناس، عندما اقتربت منه نورية لتقول إن أناسا من زمور يقولون إنهم إخوة نجمة من أبيها قد وصلوا.. قالت ذلك بحيوية وحماس لم يألفهما منها أحد، فعلق أحد الحاضرين

بأن هذا أيضا من بركة المرحوم، التي جعلت نداء الدم يملأ بيت نورية قبل أن يغرس فيه الفراغ أقدامه السوداء. فجأة أعطى هذا المجيء المباغت طعما حقيقيا للجنازة، كأن الفقدان لم يكتمل إلا بهذا الحضور. علا بكاء غامض في فضاء بومندرة، بكاء المرأة التي عثرت على بقية من أختها، وبكاء الرجل لهذا القدر الغامض، وبكاء الطفلين من أجل الغرابة والبكاء، وبكاء نورية لأنها عثرت في الأهل الجدد على معنى لحلمها البعيد. وحْدَهُ جثمان رقية لم يكن على علاقة مباشرة بهذا النحيب، حتى أنها عندما حُمِلت وتحرك بها الموكب الصغير كان في ذهابها شيء يشبه التسلل الخجول، كأنها لا تذهب إلى قبر بل إلى نسيان. وعندما وصل الموكب إلى شجرة الخروب التي تظلل الممر الضيق بين بيت الفرسيوي وزيتون الجامع الفوقي، التحق به على حين غرة شبح هب من وراء سياج الصبار، ولم يكن الشبح سوى المبروك وقد وضع على رأسه منديلا أبيض وضم يديه على صدره بقوة، وزم شفتيه مفتعلا تعبيرا جديدا على ملامحه. كان يبدو حزينا حزنا نظيفا خاليا من المعنى، وبدت الدموع المنهمرة من عينيه كما لو كانت مجرد دمعتين كبيرتين جامدتين. ظل كذلك حتى انتهت مراسيم الدفن، فانطلق مهرولا إلى مكمنه وهو يصفق بيديه الكبيرتين.

كانت بومندرة عند وفاة رقية على مشارف الانقراض، ليس لأنها فقدت كل سكانها تقريبا، ولكن لأنها عرفت شتاء ذلك العام مطرا لم تشهده منذ عقود، مما تسبب في انهيار الجامع الفوقي، وجرف ما تبقى من آثار الزاوية الدرقاوية،

وسقوط الجزء الشرقي للجامع التحتي حيث المحراب والمقصورة. نزلت السيول عبر وادي الدشر فاقتلعت كل أشجار الفاكهة التي كانت على جنباته، كما غمرت منابع عين بري وعين الد شر "وتصبابت" والعين التحتية وعين الوطا، واستمرت السيول الجارفة في هديرها حتى صبت في مياه سبو بثلاثاء مكس دون أن يعرف أحد كيف استطاع الماء وحده أن يفعل ذلك. ولم يبق في نهاية مارس من تلك السنة أي أثر للدور الخربة التي بقيت بعد أصحابها حجارة عارية. صارت البقع الترابية البيضاء هي كل ما تبقى بعد امِّحَاءِ المساكن والأزقة.. ثم جاءت الأيام المشمسة الحارة فاندلعت الأعشاب بقوة لتمحو كل ما محته السيول، فكنتَ إذا وقفتَ مع الفرسيوي على سطح البيت رأيتَ الأعشاب تخترق بعضها كأنها تنمو تحت بصرك، وكان ذلك وحده كافيا لإعطاء الأحاسيس والأصوات، وحتى الصمت، كينونة خضراء، رطبة، خانقة.

في الحوش الذي أصبح مساء تلك الجنازة مشحونا بالأنفاس الجديدة، كان الطفلان يحتلان بؤرة التوتر الذي سرى في الكائنات والأشياء. فقد انصب صخبهما على تلك السكينة المزمنة محدثا خللا كبيرا في جسد نورية التي لم تعد تعرف كيف تمشي، فأحنت قامتها كأنها تتفادى سقفا واطئا، وارتبكت الكلمات بين شفتيها حتى جعلها ذلك تحس بالحاجة إلى الانفراد بنفسها في الغرفة، وهو ما فعلته مضطربة. وعندما أغلقت الباب رمت بنفسها على الحنبل المفروش واستغرقت

مغمضة في استرخاء كثيف، وأثناء هذا الاسترخاء تذكرت مرة أخرى حلمها، وتذكرت ما أخذته على نفسها بخصوص الفرسيوي، فبدا لها ذلك بعيدا، مُنَفِّراً، وغير محتمل. وقد جعلها ذلك تفكر في ملابس نجمة، لكن المفاجأة صعقتها عندما فتحت الصندوق فلم تجد لها أثرا.

الآن وقد انصرف الطلبة ومعارف المرحوم الذين حضروا الجنازة واختفى الفرسيوي فجأة، وهجع الوافدون الجدد ليملأوا هذا المكان الغريب بأحلامهم الغريبة، ستظل نورية مفتوحة العينية في ظلام الغرفة، عاجزة عن تحديد دقيق لأحاسيسها، غير قادرة على تتبع تَخَيُّلٍ، أو تذكُّرٍ، حتى منتهاه. سيمضي بها الليل حتى مشارف الغسق وهي بين النوم واليقظة حتى انتشلتها من هذا الخواء لحظة الإفاقة الحاسمة. إذذاك تذكرت المبروك، وتعجبت، وهي تتوضأ متسترة خلف مربط البقرة، كيف أنها نسيت كل الجزء المتعلق به في حلمها، مثلما تعجبت من ظهوره في موكب الجنازة، ومن مجيئه للبيت عند تقديم العشاء، ومن ضحكه الصاخب وهو يكتشف الطفلين في باحة البيت. وكل ذلك لم يتسرب إلى تذكرها أثناء الليل، مما جعل قلبها يخفق برقة بهيجة.

وقبل أن تبزغ خيوط الشمس من مكمنها، كانت نورية متجهة بفوطتها ومائها صوب المبروك. دفعت الباب المتهالك فوصلها شخيره المتقطع. وعندما وصلت للجزء المغطى من الباحة رأت المبروك مستلقيا على ظهره، وقد لف جسمه ببعض ملابس نجمة، بينما تناثرت حوله مزق كثيرة من بعضها.

وقفت تتأمل ملامحه النائمة فتهيأ لها أن إشراقة سعيدة تغمرها، وأنها نجَحت في شحن المحيا الأبله بوضاءة أخاذة، تكاد تكون جمالا.

وضعت راحتها على جبين المبروك فاستفاق غير مذعور ولا وَجِلٍ، وظل ينظر إليها بعينين واسعتين عميقتي السواد. ثم، كأنما أدرك فجأة أنه يوجد في وضع آثم، استَل يده من شبكة "الدفينة" وبدأ يأخذها إلى فمه ويبسطها مستسمحا أو معتذرا، فابتسمت له حتى هدأ. عند ذلك أحضرت الماء، وراحت بتؤدة وصفاء تخلص المبروك من الفساتين الممزقة التي التفت على جسده مثل الشباك. وعندما فرغت من ذلك، كان المبروك عاريا تماما، فأجلسته على حجر، وبدأت تصب الماء على جسده الصلب، وتفركه مستغرقة ذاهلة. مرت بيديها الثابتتين على وجهه، وعنقه، وظهره، وصدره الواسع، وأوقفته لتصب الماء على فخذيه وردفيه، وكانت مشغولة بتخليص أصابع قدميه من قشرة الطين المتراكمة عندما أحست بأنفاسه تتصاعد ساخنة، وانتبهت فإذا الشيء الذي بين فخذيه قد دبت فيه حياة عارمة.

ومرت لحظات صمت كثيفة كأنه صمت الكون كله، قبل أن تخترق سماء بومندرة صرخة لاسعة، لم يدر أحد من الأحياء ولا من الأموات، هل كانت صرخة لذة، أم ألم، أم خلاص.

ولد بزرهون "بومندرة" سنة 1951.

بدأ نشر قصائده في مطلع السبعينات.

ترأس اتحاد كتاب المغرب.

مارس مهنة الصحافة.

تحمل مسؤوليات سياسية ونقابية.

خاض تجارب انتخابية قادته إلى تحمل المسؤولية في بلدية أكدال الرياض بالرباط. ثم في مجلس النواب منذ نونبر 1997.

عين وزيرا للشؤون الثقافية في حكومة التناوب سنة 1998. ثم وزيرا للثقافة والاتصال، ثم وزيرا للثقافة.

نشر عدة دواوين شعرية وقصصا ورواية وعددا من الكتابات الفنية والسياسية، وترجمت بعض قصائده إلى لغات أجنبية.

... لا أثر لكائن يجرح هذا الصمت.

ربما لمحت في فجوة باب بعيدة عينين لامعتين أضاءتا ثم انطفأتا فجأة.

ربما سمعت حفيف ثوب، أو سقوط كلمة على أحجار العتبات.

"... كانت الكائنات المجنحة التي في داخلي تهوي من السماء الصافية بأشجار جوز ضخمة وتغرسها في جنبات الوادي وتقتلع الإسمنت المصبوغ لتضع مكانه مربعات الطين الحالمة حتى يعود كل شيء إلى مكانه، الألون إلى نسغها، والأمكنة إلى شِعرها المصادر، والروح إلى جنوبها.

للمؤلف

صهيل الخيل الجريحة: شعر، 1978.

عينان بسعة الحلم: شعر، 1982.

يومية النار والسفر: شعر، 1983.

سيرة المطر: شعر، 1988.

يوم صعب: قصص، 1991.

مائيات: شعر، 1994.

جنوب الروح: رواية، 1996.

حكايات صخرية، سرير لعزلة السنبلة: شعر، 2000.

محمد الأشعري: أعمال شعرية، 2005.

قصائد نائية: شعر، 2006.

أجنحة بيضاء في قدميها: شعر، 2008

القوس والفراشة: رواية، 2010

يباب لا يقتل أحداً: شعر، دار النهضة، بيروت 2010.

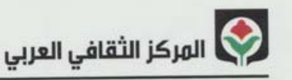
الشظايا: شعر، دار النهضة، بيروت 2011.

محمد الأشعري

جنوب الروح

يعتبر النقاد في المغرب هذه الرواية التي صدرت في طبعتها الأولى عن دار الرابطة بالدار البيضاء سنة 1996، رحما لرواية القوس والفراشة، التي نال بها المؤلف جائزة البوكر للرواية العربية سنة 2011، ويعتمد هذا الرأي على كون عائلة الفرسيوي التي انطلقت مساراتها مع جنوب الروح هي التي عرفت تعقد هذه المسارات واشتباكها بالزمن الراهن في أجواء القوس والفراشة الصادرة في طبعتها الأولى سنة 2010 وفي طبعتيها الثانية والثالثة سنة 2011.

لكن هذه الوشائج السلالية بين الروايتين، لا تجعل منهما عملين متسلسلين ، فجنوب الروح هي أولا وقبل كل شيء، تأمل شجي في اندثار الأمكنة، ومحاولة للبحث في شعرية التيه والهجرة، في عالم تهيمن فيه القرية كفردوس مفقود، وتتقاطع فيه شخصيات تجمع بين الحسي والروحي، وتلاحق بشغف كل التفاصيل الهاربة.



الدار البيضاء:ص.ب 4006 (سيدنا)
بيروت:ص.ب 113/5158
markaz@wanadoo.net.ma
cca_casa_bey@yahoo.com

